أحمد خالد فؤاد

رواية

بوابات راهوت

ساحر الكتب

(1)

استيقظت مبكرًا ذلك اليوم أتأمل قطرات الندى الساقطة على أوراق الشجر، أشعة الشمس الخافتة المارة فوق الأزهار، الناس المارين بالشارع تحمل الهم على وجوهها، وموسيقى خافتة لأم كلثوم صادرة من محل مجوهرات صغير يمتلكه رجل مسن لم يتبقَّ له في الحياة أحد فهو آخر من تبقى من عائلته، بعد موته سينتهي اسم عائلته للأبد، توفيت زوجته وابنه في حادث منذ زمن، أحيانًا أتساءل، من سيرثه؟ أتأمل وجهه الحزين وابتسامته التي يحاول أن يخفي بها حزنه ولكن أشعر بالحزن بداخله، أشعر بالحزن بداخل الأشخاص وكأنني قريب من أرواحهم الحزينة.

ارتديت ملابسي ووضعت سماعات الأذن لأنعزل عن العالم قليلًا على نغمات أغنية مجهولة، أتجه إلى مقهى قريب من منزلي، أطلب نفس المشروب وأرى نفس الأشخاص، أرتشف قهوتي وأنا أداعب روحي بالموسيقى الهادئة، المقهى الشعبي الذي أجلس عليه يمتلكه الحاج «إسماعيل مبروك» أخو «يوسف مبروك» مالك المقهى الذي على الناحية الأخرى، يقضيان معظم الوقت واقفين على الرصيف يتبادلان نظرات التحدي، لا يجلس على مقهى الحاج «يوسف» سواه ويحاسب

على «مشاريبه في قهوته». أخرجت بعض الأوراق البيضاء ووضعتها أمامي على الطاولة لعل تزور كلماتي الأوراق أخيرًا ولكن بلا جدوى، مر الكثير بأوراق بيضاء لا يزورها سوى قطرات القهوة الساقطة من فنجاني، لعلها رسالة استغاثة من الأوراق، فكلماتي لم تعد تجد لها طريقًا إلى الأوراق. أشعر بأنني أصبحت جافًا، صحراء جرداء بداخلي لا يزورها سوى الكافيين والنيكوتين الصادر من سجائر أصدقائي.

عدت إلى منزلي لأقضي ما تبقى من يومي به، أشاهد التلفاز وأحتسي قهوتي وألعب مع قطي العجوز، أتأمل أحيانًا مقولة «القطة بسبع أرواح»، لذلك كاد أن يفارق الحياة أكثر من مرة ولكنه في كل مرة يعود إلى الحياة وكأنه عاد بروح جديدة من السبع، متشبثًا بها ويقاتل ليبقى على قيد الحياة، ولكن ماذا سيحدث عندما تنتهي السبع حيوات؟ أسيعود بجسد قط آخر؟ أم أن روحه ستنتقل إلى عالم آخر في زمان آخر؟ ترهقني أفكاري، لماذا لا أعيش فقط كالآخرين، أحقن جسدي بالنيكوتين وآكل حتى يصبح جسدي ممتلئًا؟ لماذا ترهقني أفكاري لأرى العالم بصورة مختلفة، صورة قد يعتقدها البعض مجنونة وليست حقيقية؟ شعرت أن كلماتي أثرت به فنظر إليّ بغضب وكأنني حسدته

قبل أن يسقط على الأرض ولا يتنفس فحملته وهرولت مسرعًا حاملًا قطي العجوز، هذه المرة السادسة التي يفارق بها الحياة، أعتقد أنه يتبقى له حياة واحدة أخيرة.

وصلت إلى عيادة صديق لي ووضعته على مكتبه، ألتقط أنفاسي بصعوبة والعرق يملأ المكان وملامح التوتر على وجهي، ماذا لو كانت هذه نهايته بعد سنوات كثيرة؟ ولكن يتبقى له روح، أنا أعلم ذلك. صديقي أخذ قطي العزيز محاولًا إنقاذه وأنا أنظر إلى الأرجاء أنتظر الروح السابعة، أعطاني صديقي القط بملامح الحزن، النهاية أحيانًا تكون مُرضية للطرفين، فالقط ذاق الكثير ولم يفارق الحياة بسهولة. ولكنه تحرك مبتسمًا لي — لحظة الوداع — نظر إليّ نظرة غريبة، أثارت بداخلي شعور غريب وكأنه ليس قطًا يودع صاحبه، ولكن بدا الأمر أنه أكثر من ذلك، صرخت محاولًا إخبار صديقي بأن القط ما زال على قيد الحياة، قبل أن أشعر بأنفاس القط الأخيرة بين أحضاني. كانت الروح الأخيرة، الروح السابعة كانت لتوديعي.

دفنته بداخل بقعة قريبة من منزلي فلم يبتعد كثيرًا، تمشيت قليلًا واشتريت سيجارة وهي أول سيجارة

لي، شعور النيكوتين الممتزج بدمائي ليصل إلى مخي، وماذا بعد؟ رن هاتفي، فاليوم من المفترض أن أقابل بعضًا من أصدقائي ليحكوا لي عن إنجازاتهم في الحياة، أو عن اقترابهم من الانفصال عن زوجاتهم، أو قصصهم المضحكة مع أطفالهم غير الظرفاء. لفت نظري أضواء خارجة من محل ولكن لا أحد يقف أمامه وكأنه كالعجوز الوحيد الذي لا يصادقه أحد، إنه مجرد افتتاح محل بدون زبائن، توجهت إلى هناك لأجد رجلًا عجوزًا فعلًا يرتدي بذلة ويبتسم لي، اقتربت أكثر محاولًا أن أعرف ما هذا المحل الذي لا يقترب منه أحد، لافتة عريضة على باب المحل:

«هل تعتقد أنك النسخة الوحيدة؟ يمكن أن ترى ما تريد أن تراه، ولكن تحمَّل عواقبه بنفسك»

ما هذا الهراء؟ ضحكت واستهزأت من اللافتة، فابتسم العجوز بصمت ثم فتح الباب لي وكأنه يتحداني بالدخول وأنا لا أخسر التحديات، دخلت من الباب ولن أكذب قد أبهرني الديكور، أعتقد دائمًا ما يكون الديكور مكلفًا لإبهار الزبائن ومع ذلك معظم الوقت تكون الخدمة سيئة، أتجول بداخل المكان منبهرًا بالديكور قليلًا، سمعت صوت الباب الذي دخلت منه ينغلق بقوة خلفي، ولكن لم أجد الباب عندما نظرت

خلفي! لم أجد سوى حائط، ابتسمت اعتقادًا مني أنه جزء من الديكور. ليس مطعمًا، وليس مقهى، رسومات غريبة تملأ الحائط من كل الأزمنة والبلاد. تمشيت قليلًا حتى أصابني الملل، فصحت، «طب وبعدين؟ حد هنا؟»، لم يجب أحد، تمشيت حتى وجدت باب غرفة مفتوحًا قليلًا وضوءًا خافتًا يخرج منه، امرأة جالسة بالداخل، يتعالى الضوء الأحمر معظم الغرفة، تجلس مغمضة عينيها وأمامها كرة حمراء ويبدو أنها تمارس اليوجا، ساحرة تمارس اليوجا في ضوء أحمر، أستريني ما أريد أن أراه الآن؟ ألهذا لم يتجمع الناس حول المكان، والرجل العجوز لم يكن إلا «قوادًا»؟ رجعت إلى الخلف قليلًا قائلًا، «واضح إني جيت غلط، أنا كنت فاكره محل عادي»، توقفت الفتاة عن الحركة وفتحت عينيها ونظرت لي بابتسامة خافتة وأشارت إليّ بالجلوس، ثم انغلق الباب خلفي أيضًا، توترت قليلًا واقتربت منها قليلًا وجلست أمامها، ملامحها غريبة وكأنها كادت أن تكون جميلة وشابة ولكنها عجوز في نفس الوقت، وكأنها مصنوعة من جسدين فاختلطت ملامحهما ببعض، عيناها الواسعة وشعرها العجيب. نظرت إلى الكرة، كرة غريبة لم تكن كرة عادية، كرة بداخلها أشكال متداخلة من النيران، بالكاد أرى بشرًا يتحركون بداخلها، اقتربت من الكرة لأشعر بالحرارة

المنبعثة من داخلها، أوقفتني بيديها وقالت:

- احترس! ستصيبك النيران.

ابتسمت لها قائلًا:

- حسنًا، لقد نلتِ إعجابي وأداؤك كممثلة عظيم، بالكاد صدقت بأنك ساحرة.

ابتسمت لي ومدت يديها فأعطيتها يدي وقالت:

- روحك صافية يا «خالد».

- كيف تعرفين اسمي؟

- روحك صافية وده شيء عجيب، ما صابك نجاسة ولا لوثك طين.

ابتسمت لها ثم أخبرتها بعدم مبالاة:

- أنا لا أؤمن بالأرواح.

- هل نسيت ما قاله لك أبوك؟

تتكلم بثقة وأنا أدرك تمامًا قصدها، صمت لثوانٍ قبل أن أخبرها متعجبًا:

- وماذا تعلمين عن أبي؟

- اذهب إلى قبر أبيك، وحاول أن تصل لكمال الروح.

- كمال الروح؟ ماذا تقصدين؟

- تخاريف؟ أما زلت لا تؤمن بكلام أبيك حتى بعد ما رأيت؟

- ماذا تقصدين؟

- اليوم الذي انفتحت فيه المقابر وانطلقت الأرواح حولكم، اليوم الذي اكتشف أبوك أن كل شيء كان يؤمن به حقيقي، وأنت شاهد على كل شيء.

كنت أعلم أنها تتكلم عن ذلك اليوم، ساد الصمت هذه المرة لدقائق وكأن اليوم بالكامل قرر أن يمر أمام عيني من جديد بتفاصيله، ابتسامته الأخيرة وهو يودعني. مرت دقائق وأنا أنظر إليها، من أخادع، فهي تعلم ماذا تتكلم عنه. كادت الدموع تسقط من عيني وأنا أقول لها:

- هذا اليوم الذي فقدت أبي به.. لا أعلم ماذا حدث، برهني لي أن كلام أبي كان حقيقيًا.

ابتسمت لي وهي تقول:

- تريد برهانًا على ماذا؟

- أنه توجد أرواح حولنا وحياة أخرى، أنه يوجد عالم آخر مختلف عن عالمنا.

- هل ستتحمل العواقب؟

أشرت برأسي بأنني موافق. حسنًا، في الحقيقة نظراتها جعلتني أتردد للحظات. الأمر لم يبدُ كخدعة، وإن كانت خدعة فلا توجد خدعة متقنة لهذه الدرجة. مدت يدها لي فأعطيتها يدي، في أقل من لحظة

وجدت دماء من كفي تتساقط فوق الكرة، جرحتني بسكين، لا أشعر بالألم ولكن أنا مصاب! نهضت من مكاني أصرخ وفي نفس الوقت نهضت هي من مكانها، وبالكاد أشعر بأنها تطير من على الأرض، تضحك بصوت عالٍ وأصوات همس تتعالى من حولي، ينبض قلبي بقوة كبيرة والهمس يزداد، أفقد الوعي تدريجيًا حتى سقطت على الأرض، اقتربت مني لتنظر إليّ بابتسامة ثم تلاشت الرؤية نهائيًا.

(2)

شعرت بنبضات كادت أن تطيح بغلاف قلبي، نبضات متعالية تستغيث، الظلام حالك، يوجد شيء على عيني وفمي، تائه بين أصوات تتعالى وأصوات همس من حولي، أصوات غريبة لم أسمعها من قبل، لا أعلم من أنا ولا أعلم من أكون، لا أعلم ماذا أصبحت ولا أعلم ماذا كنت، لا أستطيع تحريك أطرافي وأشعر بقطرات الدماء الساقطة مني كصنبور مياه لم ينغلق بالكامل، الأصوات تقترب ولكن لا يمكنني تمييزها، أهي أصوات الموتى أم أصوات أحياء يفارقون الحياة؟ حاولت الصراخ بلا جدوى، تحولت أصوات الهمس تدريجيًّا إلى نغمات غريبة وأصوات خبط من حولي، هدأت الأصوات للحظات قبل أن يبدأ شخص بصوت غليظ أن يقول:

- أيها القوم، قد حان الوقت أن يعود سيدنا شابًّا من جديد، أن يُبعث اليوم الخامس عشر كما قال الجان، اليوم هو يوم الاحتفال، سيحصل سيدنا على جسد جديد، عظام جديدة وعينين جديدتين، سيتنفس من جديد، وسيعود المجد لنا.

شعرت للحظات بأنني داخل فيلم عن تناقل الأرواح، وأيضًا استوعبت أنني معلق بالأعلى نظرًا إلى أصواتهم الآتية من الأسفل، بدأت النغمات تعود من جديد، تزداد

أصوات الاحتفالات وبدأ صوت العواء، عواء بشر وليس الذئاب، فالذئاب تأكل ولا تترك ضحيتها تتعذب كثيرًا. لم أفهم قصده بأن سيدهم سيحصل على جسد جديد وما علاقتي به! عقلي يؤلمني، أشعر بكل شيء من حولي ولكن لا يمكنني الرؤية، مئات الأفكار تتجول بداخل عقلي وما زالت الدماء تتساقط ببطء من داخل عروقي. ساد الصمت من جديد وتوقفت الطبول والهمس، توقفت حركات أرجلهم العالية، قطع أحدهم الحبال المربوط بها لأسقط على الأرض من ارتفاع كافٍ لأتألم قليلًا، نهضت من مكاني وأصوات الضحك تزداد من حولي، التفت حولي بسرعة ويداي مكبلتان خلفي مما منعني من إزالة ما يضعونه على عيني وفمي، أتحرك بطريقة عشوائية حولي وحرارة غريبة تزداد حواليّ، أمسك بي شخص وأوقعني على الأرض ثم كبلني بالأرض، وتزداد الحرارة أكثر، وأصوات الاحتفالات تعود من جديد ولكن بهدوء. بعد لحظات بدأت أشعر بأنفاس أمامي، أنفاس كريهة تقترب من وجهي كثيرًا، أتمنى أن أرى ماذا يحدث، حتى إن كانت نهايتي على الأقل أرى كيف ستنتهي حياتي. تقترب الأنفاس أكثر وبدأ يلعق وجهي وكأنه يتذوق ضحيته قبل أن يأكلها، ابتعدت أنفاسه تدريجيًّا ثم ضحك ضحكة ضعيفة وكأنه رجل تجاوز القرن من عمره،

رائحته كالجثث المتعفنة، شككت للحظات بأنهم أخرجوه من القبر ليحتفل معهم. بدأت الموسيقى الصاخبة وكأن سيدهم أخبرهم بأنه معجب بالضحية وأعطاهم الإشارة لبدء الاحتفال بطريقة صاخبة.

أزالوا ما كان على عيني وفمي، بدأت الرؤية تعود تدريجيًا بعد ثوانٍ، وجدت نفسي بداخل دائرة نارية — كما توقعت — يرقص أشخاص غريبو الشكل بملابسهم العجيبة، قلادات كبيرة، مشوهو الجسد ويجرحون أنفسهم ويلقون بدمائهم على النيران فتزداد النيران حرارة، وعندما اكتملت قدرتي على الرؤية كاملة رأيته.. ذلك الكائن القبيح النائم بجانبي ينظر إليَّ بابتسامة متعفنة كادت رائحته أن تصيبني بالإغماء أكثر من مرة، صرخت، «من أنتم.. أين أنا؟!» ولكن لا إجابة سوى ضحكاتهم. أرى انعكاس صورتي بداخل عينيه. مر اثنان من وسط النيران يرتديان ملابس طويلة ويحملان عصيان مزخرفة وأنا مستلقٍ على دمائي أصرخ بقوة.

ينظران إلى القمر وبدآ يتلوان تلاوات بلغة غريبة، شعرت بأن روحي لم تعد مكتملة ولكنها لم تتركني، بعدها نظرا إليَّ بتعجب ثم بدآ يتلوان من جديد ولكن بلا جدوى، قال أحدهم:

- روحه عذراء وطاهرة ولا يمكننا لمسها، نريد الجسد والروح، لن نتركه.

لم أفهم كلامهما جيدًا ولكنني فهمته بعد لحظات عندما أشارا لفتاتين بالاقتراب، مرّتا وسط النيران لا ترتديان سوى القلادات، تقتربان مني وبدأتا في تلويث روحي بجسديهما المشوهان، متعة غير مرغوبة إذا بحثت عنها في الواقع فلن تجدها إلا إذا كنت تمتلك المال أو وسيمًا، وها أنا أحصل عليها بالمجان، ولكن هل تتلوث الروح بتلك الأشياء؟ بدآ يتلوان من جديد ولكن هذه المرة شعرت بأن روحي تغادر جسدي تدريجيًّا، يحترق جسدي وذلك الكائن بجانبي يتألم أيضًا، ما يحدث لي يحدث له، أفقد الشعور بجسدي، للحظات شعرت بأنني أرى روحينا تحلق فوق جسدينا ثم عدت إلى الظلام من جديد.

استيقظت لأجد نفسي بداخل جسد القبيح المشوَّه، جسدي مرهق وعظامي متآكلة، تمر اللحظات كالسنين فلماذا لم يقتلوني؟ أحيانًا أشعر بأن الحيوانات أكثر رحمة من البشر، فلا ترى أسدًا يأكل قدم فريسته ويتركها تتألم، فما بالك وقد أخذوا جسدي مني؟ أجلس على السرير بداخل غرفة متهالكة وباب خشبي وثلاثة حراس واقفون بالخارج وأصوات الموسيقى ما

زالت بالخارج، ولكن لم نعد ليلًا فالشمس ساطعة، ورأيت في أثناء سطوعها ما حدث لي في وجود القمر، الحائط مليء بالرسومات القديمة غير المفهومة. سمعت خطوات أحدهم تقترب، إنه حارس بزي أكبر من حجمه وقف أمام الباب الخشبي وتكلم مع الحراس قليلًا ثم رمى لي بعض الخبز المتعفن وعظام الفراخ وكأنني كلب ينتظر طعامه، ابتسمت له بفم خالٍ من الأسنان ثم نهضت من على السرير، أستطيع سماع طقطقة عظامي الهزيلة التي تحملني بصعوبة، واقتربت من الباب ببطء فأشار إليّ الحراس بالجلوس فعدت إلى مكاني أحاول أن أفهم ماذا يحدث حولي، أحاول أن أصرخ ولكن صرخاتي ضعيفة غير مسموعة. مرت فتيات بالقرب من الغرفة بملابس شبه عارية أثارت الحراس قليلًا.

نظروا بعضهم إلى بعض ثم قال أحدهم باستهزاء:

- لنذهب ونحتفل كالجميع، فإنه عجوز وعظامه بالكاد تتحمل وزنه على أي حال.

تردد الحارسان الآخران ولكن انتهى ترددهم عندما بدأت الفتيات بالضحك بطريقة مثيرة فذهبوا مع الحارس الآخر وتركوني وحيدًا.

أستطيع أن أرى نصف الشمس من النافذة، أتأملها،

فأنا لا أعلم غيرها في هذا العالم، مهما ذهبت فالشمس واحدة، سمعت صوت خطوات أخرى، ظننت أن الحراس قد عادوا ولكن بتلك السرعة؟! أو الحارس الآخر لعله يلقي لي ببعض الديدان الآن مع الخبز المتعفن، ولكنها لم تكن سوى فتاة في أواخر العشرينيات على ما أظن، نظرت إليَّ نظرات سريعة وتحركت مبتعدة سريعًا، ناديتها، «أرجوكِ ساعديني!» أبطأت خطواتها ونظرت إليَّ ثم اقتربت من الباب وقالت لي:

- لن يتجرأ أحد على مساعدتك. لقد فات الأوان وأصبح العجوز يستمتع بجسدك وأنت محبوس بداخل جسده.

صحت بداخلي، (أنا أعلم ذلك أيتها الحمقاء!) بالطبع لم أقل لها ذلك. نظرت إليها مجددًا وقلت لها:

- ساعديني على الخروج، ساعديني أن أواجه نهايتي خارج تلك الغرفة اللعينة!

نظرت الفتاة حولها ثم قالت بحزن:

- أنا آسفة.

التفتت الفتاة ورحلت بعيدة، أصابتني خيبة الأمل فعدت خطوات إلى الخلف وجلست على السرير. مرت لحظات، دقائق، ساعات، لم أحصِ كم مر من الوقت، قد

تكون دقائق ولكنها مرت كسنوات. أصوات..

العواء يعود من جديد وضوء الشمس قد انخفض قليلًا، ساعات قليلة وتتركنا الشمس من جديد ويعود القمر ليطمئن على ما حدث لي، أسمع صوت خطوات تقترب من جديد، لم أعد أهتم ولم أنظر إلا عندما سمعت صوت انفتاح الباب ثم صوت خطوات سريعة مبتعدة، فنهضت من مكاني واتجهت إلى الباب مسرعًا ثم ألقيت بعض النظرات إلى الخارج بحرص، ولكن لا يوجد أحد سواي، أسير بخطوات بطيئة وأستند إلى الحائط، وجدت نافذة فاقتربت منها وتشبثت بأطرافها لأسرق بعض النظرات إلى الخارج، قطع انتباهي صوت الحراس وضحكات الفتيات بالقرب من مكاني، فقد انتهت أو أوشكت فقرة المتعة على الانتهاء ولن يتبقى سوى دقائق قبل أن يلاحظوا اختفائي، لفت نظري عربة مملوئة بالحشائش أسفل النافذة، تسلقت ببطء وقفزت منها، تعجبت أن عظامي تحملت تلك القفزة. أصوات الأبواق تتعالى ثم صاح أحدهم، «قد حان وقت الألعاب الدموية!» أرى الجثث الساقطة نتيجة ألعابهم العنيفة، وسمعت همسات الحراس بأن حياة الملك من السهل أن تنتهي إذا مات الشخص الذي يعيش بداخل جسده العجوز، هل يتكلمون عني أنا؟ أنا

ذلك العجوز الذي يتكلمون عنه، الآن أنا أعلم كيف أنهي حياته بسبب همسات حارس غبي، سوف تنتهي أعظم تعويذة.

خرجت من العربة بعد قليل ووجدت ملابس وسكينًا لشاب يستحم بالبحيرة، ارتديت ملابسه العجيبة وقبعة كبيرة وبدأت التحرك، أستند إلى ما يمكنني إيجاده وأحاول الاقتراب من الاحتفالات أكثر، اقتربت لدرجة كافية لأراه يصعد وسط الحشود بجسدي ويهتفون له ويبتسم لهم، هذا العجوز القبيح! حسنًا، أنا العجوز القبيح الآن وهو يعيش بداخل جسدي الشاب. تحركت للأمام قليلًا، حاولت الاقتراب من المسرح، بحثت عن أعلى نقطة قد أصل إليها وفي نفس الوقت يمكنهم رؤيتي وأنا أنهي حياتي البائسة وحياته التي تبدأ من جديد بداخل جسدي، رأيت جرسًا كبيرًا محاطًا بتل صغير من الجثث، فكلما ازدادت الألعاب صعوبة ازداد عدد الجثث ليلقوا بها على جانب الطريق ليكوِّنوا تلًّا كبيرًا من الجثث، صعدت فوقها بصعوبة حتى وصلت إلى الجرس ثم خلعت قبعتي ولكني لم ألفت نظر أحد، أرى الحارس يهمس لهذا المخلوق الأناني الذي يعيش بداخل جسدي، أظن أنهم أدركوا أخيرًا أنني اختفيت، ولكنهم لا يعلمون أنني على وشك

إنهاء أكبر تعويذة، رننت الجرس وخلعت ملابسي وأصبحت عاريًا بجسد عجوز، أريد أن أنهي حياتي كما أتيت إليها، عاريًا.

يمكنني رؤية الذهول على ملامحهم والصدمة التي تحولت إلى ابتسامة على ملامح سيدهم، أمسكت بالسكين وضحكت كرجل عجوز تجاوز القرن من عمره، فمن ظهر لي في الظلام فسأنهيه في العلن، غرزت السكين بقلبي، لن أكذب، كان شعورًا جيدًا لأنه سقط على الأرض، ومؤلمًا لأن السكين أصبح في منتصف قلبي، الآن أصبحت أعلو تل الجثث لأكون أنا القائد، قائد الجثث إلى المحرقة مع الكائن القذر.

(3)

استيقظت مرتعبًا، أتنفس بصعوبة، أتعرق بشدة، ظننت لوهلة بأن ضربة السكين لم تكن بالقوة الكافية وأنها أصابتني فقط، ولكني أدركت بعد لحظات بأنني في غرفتي على سريري، هل عدت إلى جسدي من جديد؟ ذهبت مسرعًا إلى الحمام أتأمل ملامحي فكم اشتقت إليها، الابتسامة اعتلت وجهي، ظننت أنه كابوس، ولكنني أدركت بأنه لم يكن كابوسًا عندما لم أجد قطي، جلست على السرير بملامح التعجب والقلق، إنه يوم جديد ولكن ماذا حدث، أين كنت، وكيف أتيت إلى هنا؟ فأنا فقدت الوعي بهذا المحل.. نعم، المحل! لقد تذكرت الآن، ولكن كيف أتيت إلى المنزل؟

ارتديت ملابسي مسرعًا محاولًا أن أتذكر أين يقع هذا المحل، بحثت في جميع أنحاء المنطقة ولكن بلا جدوى، لا أثر له، بعد ساعات من البحث وقفت أمام محل يبدو مختلفًا ولكنني متأكد من أنه هو، دخلت بأنفاس متقطعة أبحث في الأرجاء، فلم يكن سوى محل مخبوزات صغير الحجم، بدأ ينظر إليّ الجميع بتوتر وأنا ما زلت أبحث في المكان عن أي أدلة، ظللت أبحث حتى وجدت الغرفة التي كانت تجلس بها الفتاة ولكن لم أجد إلا الصناديق الفارغة، عقلي منهك من

التفكير، هل كنت أحلم؟ ولكن كيف؟ جلست على الأرض محاولًا إدراك ماذا يحدث.. مر وقت كثير في نفس موضع الذهول حتى طلب مني أصحاب المحل الرحيل، خرجت وأنا تائه بين أفكاري وأسير في طرق عشوائية لا أعلم أين أنا ولا أعلم إلى أين اذهب، دخلت مطعمًا قريبًا حتى تسكت أمعائي عن الصريخ، أجلس على كرسي عالٍ أمام «البار» وطلبت الكثير من الأكل وأجلس في حيرة ولا أعلم ماذا أفعل وماذا حدث لي، ماذا لو سرقوا عضوًا من أعضائي؟ فذهبت إلى الحمام مسرعًا وبحثت في جسدي ولكن كل شيء كامل ولا يوجد آثر لأي جرح، عدت إلى مكاني بخيبة الأمل قائلًا، «وماذا بعد؟» شعرت بأن روحي تحاول الخروج مجددًا، نبضات قلبي تتعالى، مسامي بدأت في إخراج بعض قطرات العرق، ترتعش يداي.. ولكن كل هذا توقف بعد لحظات عندما اقتربت فتاة مني مبتسمة برائحتها العطرة وشعرها الطويل وعينيها الخضراوين الواسعتين، تبدو مثالية وكأنها صُممت لتكون رمز الجمال، اقتربت أكثر ورائحة عطرها وأنفاسها تزيد من سرعة نبضات قلبي أضعافًا وروحي تنتفض بداخلي، أشعر بشعور غريب لا أعلم عنه شيئًا، نظرت إليها لدقائق، لساعات، قد تكون أيامًا، لا أعلم، فقدت إدراكي بالزمن وأصبحت محاصرًا بداخل قوقعة من اللاشيء،

ولكن أعلم أنني استغرقت الكثير من الوقت قبل العودة إلى عالم الواقع، وأنها قد رحلت، وقهوتي أصبحت باردة بالفعل.

قلبي نبض بعد أن وعدني بأنه لن يفعل مجددًا، نبضاته كادت أن تيقظ من يسكن في آخر الشارع، نظرت إليها جالسة مع أصدقائها مبتسمة، لا أعلم من هي ولا أعلم أي شيء عنها ولكن أدرك ملامحها ونظراتها المتعجبة وكأنها تعلم من أنا، أو على الأقل تشعر بأنني مألوف لها، اكتفينا بنظرات طويلة ثم نظرات سريعة ثم رحلت بعد لحظات بملامح توتر واتبعها أصدقاؤها.

بعض النبضات كانت كافية لقلبي أن يأخذ السيطرة على جسدي وليريح عقلي قليلًا من التفكير، أحيانًا أتساءل إن كان الحب اختيارًا أم إجبارًا أم شعورًا خارج عن الطبيعة، المنطق يقول إنه من المستحيل أن تقع في الغرام بسبب نظرة، الحب من أول نظرة مجرد وهم، ولكننا نعلم جميعًا بأننا قد نقع في الحب من مجرد نظرة، نظرة واحدة كافية أن تغير حياتك، ولكن للحب درجات وأنواع. النظرية تقول إن الأرواح هي من تعشق لسبب من الأسباب التي لا نعلم عنها شيء، وأننا لسنا سوى جسد وعقل، نحن نتخذ القرارات وقد

تعاني أروحانا أحيانًا بسبب القرارات الخاطئة فتعاقبنا بالحزن.

عاد عقلي للعمل من جديد ليفكر في كل ما حدث الليلة الماضية، لقد أخبرتني شيئًا عن أبي وعن قبره، أخذتُ معطفي ولملمت أغراضي واتجهت إلى قبره. مستلقٍ بجانب قبر والدي وأنظر إلى النجوم وأنا صامت لا أتكلم وكأنني أريد فقط الاستمتاع برفقته قليلًا، الرياح باردة وعطره ما زال في الأرجاء، قبره مزين بالأزهار الغريبة، والنجوم تتزايد، وفي تلك اللحظة قررت أن أخرج عن صمتي قليلًا:

- أتذكر أنك حكيت لي الكثير عن النجوم وأنا صغير، أنا لا أتذكر كل ما أخبرتني به لأني كنت أشعر بأن كلامك خيال وليس حقيقيًا، وأنا كرهت الخيال ولم أحب سوى الواقع. ولكن مع مرور الوقت اكتشفت أن معظم ما أخبرتني به كان حقيقيًا، وأن الحياة ليست ما نراه بأعيننا وتوجد جوانب كثيرة مظلمة لن يستوعبها عقلنا.

أخذت نفسًا عميقًا قبل أن أكمل كلامي:

- كان يجب أن أستمع إليك بتركيز أكبر، أن أتركك تخبرني أكثر عن الأرواح وعن الزمن، أن تكلمني عن النجوم والحب، الحب الذي لا أعلم شيئًا عنه. أتذكر

أنك أخبرتني في اليوم الذي.. الذي رحلت فيه عن عالمنا، أنك تكلمت معي عن الروح والحب وعن عشق الأرواح، وأنه إذا افترقت الأرواح العاشقة تظل تبحث عن بعضها حتى تتلاقى من جديد. لقد رأيت فتاة اليوم، وهذا ما شعرت به.

هل تعتقد أن هذا ما حدث؟ هل الأمر له علاقة بالأرواح؟ كنت أتمنى أن تكون بجواري الآن. أنا آسف لأنني لم أكمل مسيرتك، حاولت كثيرًا في الماضي ولكني لم أستطع. أنا سعيد لأنك رأيت ما كنت تؤمن به. لقد حدث شيء غريب أمس، قابلت فتاة عجيبة وكانت تتكلم عنك وعن كمال الروح، بالتأكيد قصدها ما حدث منذ 20 سنة، يوم المقبرة..

***

منذ 20 سنة

- متى سنتوقف عن الحفر يا أبي؟

- عندما نجد ما نبحث عنه.

- لقد مرت ساعات وأنا مرهق ولا أعلم ما الذي نبحث عنه.

- اقترب يا «خالد»، سأخبرك لماذا نفعل ذلك، اتبعني إلى الخيمة.

أحيانًا ينتهي بنا الحال في ظلمات العالم، ليس كل

ما نراه هو الحقيقة الوحيدة، عالمنا أخطر بكثير مما نراه والقليل منا يحاول استكشاف هذا العالم المظلم، ولكن ليس جميعهم أحبوا ما رأوه، الظلام قد يكون جميلًا لبعض الناس ومخيفًا للبعض الآخر، قد يهرب البعض من الظلام ولا يعود إليه، والبعض لا يجد طريق العودة فيبقى في الظلام إلى الأبد حتى تتحجر مفاصله وتتصلب عظامه وتتعفن رائحته.

نظر إليّ أبي بابتسامة وقال لي:

- استمع لي بحذر يا «خالد»، قد يأتي اليوم الذي تكون به وحدك وتخبر أطفالك بكل هذا. قد يكون في نفس المكان أو في مكان آخر، عائلتنا ليست عائلة عادية يا «خالد»، أجدادي وأجدادهم، اعتدنا أن نعيش في المقابر، اعتدنا أن نعيش وسط الموتى ولا نقترب كثيرًا من الأحياء، لا نحبهم لأن روحهم ليست صافية، أرواحهم ملوثة ومزيفة، ولا أحد يعلم ما الذي بداخله وقدارته.

تعجبت من كلامه قليلًا، صمتُّ للحظات ثم قلت له:

- أنا لا أؤمن بالأرواح يا أبي.

- لا تكن ساذجًا، الأرواح حولنا في كل مكان، تلك الصحراء مليئة بالأرواح التي تنتظر دورها.

- دورها لتفعل ماذا؟

- دورها لتُبعث وتعيش من جديد، الأرواح صافية يا «خالد» وجميلة، والبشر هم الشيء الوحيد قادر على أن يلوثها.

نظرت إليه باستغراب قائلًا:

- هل توجد أرواح حولنا الآن؟

ابتسم أبي ابتسامة خفيفة ثم قال لي:

- الأرواح في كل مكان، في الأرض وفي السماء، دائرة بداخل دوائر، تزداد أعدادها وتقل ولكن النهاية واحدة، هل تعلم ما الشيء الوحيد الذي تتعلق به الأرواح؟

سألته سريعًا:

- إيه؟

- الحب، وليس أي درجة من الحب.. العشق، الروح عندما تعشق روح أخرى تتعلق بها ومهما حدث ستدرك الأرواح بعضها عندما تتلاقى من جديد.

- هل أمي هي الروح الأخرى؟

ضحك أبي وهو يقول:

- لا يا «خالد»، أمك — الله يرحمها — لم تكن سوى الاستقرار، نحن لم نعلم الحب.. لم نعلم سوى الزواج والإنجاب، ليس لي أحد سواك أنت وأختك الآن.

لننهض ونكمل عملنا، أشعر بأن الأرواح اقتربت بأن تزيد روحًا.

لم أفهم ما كان يقصده تحديدًا ولم أفهم معظم كلامه عمومًا، فأنا عمري لم يكن يتعدى العشر سنوات حينها، ولكنني شعرت بالصدق في كلامه، ذهبت بشعور مختلف إلى المقبرة هذه المرة؛ فكلماته، رغم أنني لم أفهمها جيدًا، ولكنني شعرت بالقلق. ولكن يبدو أنني لست فقط من كان يشعر بالقلق، فنظراته وهو يحفر كانت مختلفة، كأنه يحمل الهم الآن، ملامحه تبدو أكبر سنًا وتجاعيده أصبحت واضحة، أو من الممكن أن هذه أول مرة منذ زمن أنظر إلى ملامحه بحرص وتأمل، نظر إليّ مبتسمًا وبأسفله صندوق ذهبي مزخرف بكلمات فرعونية، من معرفتي القليلة بالكتابة الهيروغليفية أدركت أن المكتوب عليها تحذير، ونظرات أبي لي أكدت لي هذا التحذير.

نظر إليّ أبي مبتسمًا ومفتخرًا وهو يقول لي:

- لقد أخبرتك يا «خالد»، هذا هو ما نبحث عنه، اجلب المعدات لنفتح الصندوق.

قلت له في قلق:

- ولكن يا أبي يوجد على الصندوق جمل تحذيرية!

- لا تقلق، فتلك العبارات لتخويفنا فقط، وماذا

سيفعل الموتى لنا على أي حال؟ إنهم يحبوننا.

صعدت لأحضر الأغراض وترتعش مفاصلي خوفًا فالأمر لم يكن طبيعيًّا، ونعم، الموتى قد يفعلون الكثير! أحمل صندوق المعدات وفي طريق عودتي إلى المقبرة انفجر نور أزرق أصابني بالعمى لثوانٍ، أستطيع سماع ضحكات أبي العالية فرميت الصندوق وذهبت مسرعًا نحوه، ولكن لم يمكنني الاقتراب من المقبرة لأكثر من خطوات وكأن شيئًا ما كان يوقفني، أبي مرتفع عن المقبرة ببعض الخطوات وسط الضوء وما زالت الابتسامة على وجهه وهو يقول لي:

- هل صدقتني يا «خالد»؟ هل ترى؟ إنهم في كل مكان.

أصرخ وأحاول الاقتراب منه، ولكن دائمًا ما كان يمنعني شيء وكأنه حائط مخفي، تتحول ملامح أبي تدريجيًّا ليبدو أكبر سنًّا، التجاعيد تزداد سريعًا، وابتسامته التي لا تفارق وجهه وكأنه أخيرًا يرى ما كان يؤمن به منذ الصغر يتحقق أمام عينيه، ينظر حوله بتعجب وكأنه يرى شيئًا أنا لا يمكنني رؤيته، توقف عن الابتسام بعد ثوانٍ ونظر إليَّ ليلقي جملته الأخيرة:

- لا تقلق، سأكون بجوارك دائمًا.

***

قطع فترة تأملي شخص يرتدي أسود واقف بعيد ينظر إليّ، نهضت من مكاني وأنا أنظر إليه بتعجب، اعتقدت أنه لص في البداية قبل أن يشير إليّ ويرحل مبتعدًا، تجمدت قدمي للحظات فلا أعلم إن كان من الصواب أن أتبع شخصًا مجهولًا يرتدي أسود في منتصف الليل وينظر إليّ، بالطبع لا! ولكني اتبعته على أي حال. يسير بخطوات سريعة وأنا أتبعه، اقتربت قليلًا لأدرك أنه فتاة وليس رجلًا، تدخل ما بين الشوارع والحواري الضيقة وتصعد درجات كثيرة وتنزل درجات أكثر، وتزداد الرياح وتنخفض ويسود الصمت جميع الأماكن نظرًا لتأخر الوقت، كادت أن تتوه مني عدة مرات حتى وصلت إلى حارة شعبية عجيبة، الناس بها ليسوا طبيعيين، فهم ينظرون إلى الأرض ولا يتكلمون وكأنهم مبرمجون على التحرك بهذا الشكل، حاولت التكلم مع البعض منهم ولكن بلا جدوى، اقتربت من البيت قليلًا، بيت قديم متهالك مهجور، شعرت بالخوف الشديد، وجدت امرأة عجوزًا تجلس بجوار المنزل وتحرك رأسها بكل الاتجاهات بقوه وتصيح، «يا منجي نجّني وأنقذ روحي واشفِني»، صراخها يزداد تدريجيًا ثم صمتت وأنهت صراخها بابتسامة، ثم نهضت وانضمت إلى المارين وكأنهم ليسوا بشرًا، يتحركون بطريقة ثابتة ذهابًا وإيابًا، وقفت

أمام المنزل وعم الصمت بالحارة فنظرت خلفي لأجدهم جميعًا ينظرون إليَّ مبتسمين ثم بدؤوا الاقتراب مني ببطء ويهمسون:

«إن كان الجسد ملكك فالروح ليست ملكك.»

لا أفهم ما يقولونه، رجعت إلى الخلف قليلًا ثم صرخت عندما أمسكت المرأة العجوز بقدمي والسواد يملأ عينيها وتصرخ «اهرب.. لا تدخل!» ولكني كنت بالفعل على أعتاب المنزل، انغلق الباب لأجد كل من بالحارة يكمل طريقه وكأن شيئًا لم يحدث، نظرت حولي فوجدته بيتًا مظلمًا، وسمعت أصوات صراخ بالأعلى، وفتاة تتمشى بصينية ثم توقفت قليلًا وابتسمت لي وأكملت طريقها، أصعد إلى الأعلى بخطوات بطيئة، خطوة إلى الأمام ومائة إلى الخلف، الرعب يتملكني، لا أعلم ماذا يحدث.

وصلت إلى الدور الأول وأنا أستمع إلى أصوات تلاوات غريبة لا أفهمها، رأيت الرجل العجوز مجددًا ببذلته وشعره الأبيض يبتسم لي ويشير إليَّ بالدخول، دخلت إلى الغرفة لأجدها فارغة والظلام حالكًا بها، ولكنني أسمع خطوات قدم حولي حتى أضاءت الغرفة بالكامل لأجد المرأة العجوز تصرخ بوجهي، «ألم تكتفِ؟!» سقطتُ على الأرض وهي تقترب مني

وتبتسم، بردائها الأبيض العجيب وشعرها الأبيض المزين بأطراف مختلفة الألوان، تسألني بملامح تعجب:

- تأكدت؟

ألتقط أنفاسي بصعوبة وأنا أقول:

- أريد أن أفهم ماذا حدث!

ابتسمت لي بنبرة هادئة وهي تقول:

- اتبعني.

اتبعتها لندخل إلى غرفة أخرى بداخل الغرفة مزينة بالرسومات وكأننا لم نعد في البيت المهجور، نفس الكرة والنيران المتداخلة ولكن البشر أوضح هذه المرة، بشر يتحركون بداخل النيران، تبدو كعوالم منفصلة. تتحسس ملامحي بأظافرها الطويلة، سألتها مجددًا:

- ماذا حدث أمس؟ هل كان كابوسًا؟

همهمت قليلًا قبل أن تجيب بسخرية:

- أخبرني ماذا رأيت.

- وكأنني كنت في زمن آخر. أنا، ولكن في جسد مختلف وعالم مختلف.

- مضبوط.

- إذًا فما رأيته كان حقيقيًا؟

- كل ما رأيته حقيقي وروحك عاشته في الماضي.

نظرت إليها بتعجب ثم سألتها:

- أمن الممكن أن أعيد هذه التجربة؟

تعجبت قليلًا فهي لم تتوقع أنني سأطلب هذا.

- ما الذي اكتشفته في قبر أبيك؟

- أني لم أصدق الكثير من كلام أبي ومعظم كلامه كان حقيقيًا، وأن العالم مظلم؟

- لا.. اكتشفت أنك حمار.

- حمار؟

ضحكت وهي تجيب:

- الحمار ليس إهانة، الحمار يرى الأرواح والشياطين، الحمار جزء من العالم المظلم وأنت تريد أن تكون جزءًا من هذا العالم المظلم. لماذا أتيت يا «خالد»؟

- أنتِ من تريدين وجودي هنا.

- احكِ لي ما رأيته بالتفاصيل.

أخبرتها عن الذي حدث، بدا عليها التعجب والتوتر قليلًا قائلة:

- شعرت بالروح وهي تخرج من جسدك؟

- نعم، وأريد أن أفعل هذا من جديد.

توترت ملامحها ثم قالت:

- اذهب إلى منزلك يا «خالد»، لا داعي للمخاطرة.

تعجبت من ردها.

- ما الذي أخاطر به؟

- الحياة ليست سهلة، الحياة لها قوانينها والطبيعة لها قوانينها، ربنا وضع القوانين، وليست كل القوانين يجب أن نخاطر بمخالفتها، أحيانًا قد تؤذي نفسك والعالم الذي حولك.

- أنا لا أفهم شيئًا، ما المخاطرة؟ أليست جميعها مجرد أحلام؟

- أحلام؟ ما رأيته هو الجانب المظلم يا «خالد»، روحك تتذكر، وترى ماضيها بطريقة عشوائية.

- ماذا تقصدين؟

- ما رأيته يا «خالد».. روحك عاشته من قبل، أنت رأيت جسدك الذي عشت بداخله في الماضي، والروح عاشت في أجساد كثيرة، ومن الخطر أن الروح تتذكر، وقد يدوم الأمر طويلًا إذا أرادت الروح هذا.. قد تطول رحلتك لشهر، أسبوع، ساعة.. عندما تكون الروح جاهزة لتعود ستعود.

- أنا لا أفهم، هل يمكنني تغيير الماضي؟

- لا، سترى كل شيء كما حدث في الماضي، ستشعر بكل شيء وتعيش اليوم وكأنك تشاهد فيلمًا، ولكنه واقع وقد عشته من قبل.

صمت للحظات ثم سألتها:

- ما اسمك؟

فردت بابتسامة:

- «ديجا».

أخذت نفسًا عميقًا وأنا أقول لها:

- «ديجا»، أريد أن أكرر هذا وسأتحمل العواقب.

- متأكد؟

ترددت مجددًا قبل الإجابة، ولكن ماذا لديَّ لأخسره؟

- نعم!

- تذكر أنني حذرتك.

أخذت بيدي لتتلو تلاوة عجيبة ووضعت يديها على رأسي، لينتابني شعور الإغماء مجددًا تدريجيًّا.

(4)

قطرات الندى الساقطة على زجاج الغرفة، مشاعر تطاير بجميع أركانها وأنا جالس على السرير بزي عسكري وزوجتي نائمة، أتأمل ملامحها والهواء المار بين خصلات شعرها الذهبي عاكسًا لمعانه على عيني ليضيء شلالًا من المياه على وشك السقوط من عيني ولكن اكتفيت بإظهار بعض الاحمرار فقط محاولًا أن أودعها في صمت، مررت بكفي على ملامحها وصولًا إلى بطنها المنتفخة التي تحمل طفلي بها، ثم قبلت يديها وظللت جالسًا في صمت لنصف ساعة حتى استيقظت لتجدني جالسًا في حيرة، فنهضت من مكانها وجلست بجانبي، وضعت رأسي بين أحضانها، تداعب خصلات شعري بأناملها وهي تهمس:

- لا تقلق.. ستشرق الشمس خمس مرات وستعود في اليوم السادس لنشاهد الشروق معًا.

نظرت إليها بطرف عيني وأنا أقول لها بقلق:

- وماذا لو لم أعد؟

امتلأت عيناها قليلًا ولكنها حاولت جاهدة أن تخفيها وهي تقول:

- أرجوك لا تقل هذا.. ستعود.. يجب أن تعود، فأنا وابنك نحتاجك.

اكتفيت بالصمت قليلًا ثم قلت لها:

- أنا أحبك.. وسأعود، لا تقلقلي، فأنا دائمًا أعود.

يمكنني أن أرى في عينيها القلق وأنها لا تصدقني هذه المرة، لا أريد الذهاب ولكن أحيانًا لا نختار غايتنا والاختيار لا يعود لنا. حضنتها حضن الوداع، أحيانًا نشعر بالنهاية عندما تقترب، قد نكون مخطئين ولكن في معظم الوقت عندما نتوقع النهاية فإنها تحدث. وصلت السيارة التي ستقلني إلى عراك الموت، أو هكذا سميته. أنهيت حضني ببعض الدموع التي سقطت أخيرًا على خديها وقبلة على رأسها ثم نهضت وخرجت من المنزل واتجهت إلى السيارة وصعدت بداخلها، سلمت على الجنود ولكن الجميع كان صامتًا، أظن أن شعور النهاية ليس بداخلي أنا فقط.

أرى ملامح التوتر والخوف على وجوههم، ولكن بعض الثقة المزيفة على وجه البعض الآخر، يغنون الأغاني ويهتفون، يحاولون نشر البهجة المزيفة حتى ينسى الجميع النهاية، أو على الأقل ليستمتعوا بها. استغرقنا بضع ساعات لنصل إلى وجهتنا، عندما وصلنا بدؤوا في تسليمنا المعدات والأسلحة ويخبروننا عن مهامنا وماذا سنفعل ثم وضعونا بداخل خنادق منتشرة على أطراف مدينة مهجورة قديمة، نجلس بداخل

الخندق بقليل من الأكسجين وملامح القلق الممتزجة بالخوف وتزداد أنفاسهم بطريقة سريعة وأنا أيضًا، أنظر حولي متأملًا ملامحهم واحتضانهم لأسلحتهم، والبعض منهم يكتب رسائل الوداع بإمضاء من أعينهم الممطرة بالدموع. ويجلس بجانبي صديقي، لم يتوقف عن الغناء والرقص، يقولون عندما تقترب النهاية ولا تجد مفرًا منها فليس عليك سوى الاستمتاع بآخر لحظاتك، وهذا هو ما يفعله، ثم صاح، «غنوا معي!» ثم بدأ يغني بصوت أعلى لتبين اهتزازت أحباله الصوتية الخائفة، نظر إليَّ وقال:

- هل سنهرب من الموت هذه المرة أيضًا؟

ضحكت وأجبته باستغراب:

- من المحتمل.. أليس هذا ما نفعله دائمًا؟

نظر حوله ثم اقترب مني وهمس:

- وهل سنفعلها هذه المرة؟

فابتسم لي وعاد للغناء ثم صاح أحدهم، «مولودي الأول سيتم إرساله إلى الحياة اليوم!» يعلن عن الخبر بابتسامة قلق ليهنئه الجميع فصحت أنا الآخر، «وأنا أيضًا!» بدأ يتكلم الجميع عن خططهم المستقبلية وأحلامهم التي سيبدؤون في تنفيذها بعد تلك المعركة، وفي الغالب لن ينفذ أحد خططه، أريد أن

أخبرهم أننا يجب أن نصمت، لماذا تحلمون بالمستقبل وأنتم بداخل حلقة من النيران، لماذا لا نهدأ فالكلام عن أحلامنا البائسة لن يساعدنا؟! انتهت حفلة التهنئة بالمولود عند دخول القائد ليلقي علينا خطبة الوداع قبل الرحيل:

- أستطيع أن أرى القلق في عيونكم، ولكن ما الداعي من القلق؟ فنحن انتصرنا في كل معاركنا.. وأعتقد أننا محظوظون وسننتصر هذه المرة أيضًا، يجب أن تعلموا أن الأعداء ليسوا أقوى منكم، ويجب أن تؤمنوا بأنكم قادرون على الانتصار.

هل يراهن على انتصارنا أو موتنا بإن كان الحظ حليفنا اليوم أم لا! ألقى كلماته وهو لا ينظر إلى أعيننا فكلماته كانت سريعة، كادت أن تسيل أنهار الدموع من أعيننا، ليس ضعفًا ولكن خوفًا من أن تنحرم أعيننا من تلك الحياة، نحن الآن نشعر بقيمة كل شيء، عندما تقترب النهاية فكل شيء يصبح ممتعًا وجميلًا، حتى أتفه وأبسط الأشياء تصبح جميلة وذات معنى. لاحظت تجمد قدم صديقي دليلًا على محاولة تظاهره بالقوة ولكن ركبتيه لم تكونا ثابتتين، فشلت مفاصله في أن تداري رعبها.

أصوات الصواريخ بالخارج وصراخ العدو، عندما

تكون خائفًا تتحول مشاعر الخوف تدريجيًا إلى غضب عندما تقترب النهاية أو تسمع صوتها، فيتخلص الجسم من أي مشاعر سلبية ويحولها إلى شعور الغضب والحماس، ثم يبدأ المخ في العمل بالكامل ويصبح تركيزك مضاعفًا، ويصبح جسمك مخدرًا، قد تصاب برصاصة ولن تشعر بذلك حتى، فأنت تريد النجاة بحياتك وهذا ما يفعله جسدك وعقلك، يحاولان أن يبقياك على قيد الحياة، يجعلانك أقوى بأضعاف وصرخاتك سيهابها الجميع. ولكن أنت في معركة الجميع فيها يحاول النجاة، فأنت قوي والجميع أقوياء. الآن يبدأ الجميع بالهتاف والصياح، ثم صرخ صديقي، «قد حان الوقت لنهرب من الموت مجددًا!» ثم نظر إليّ بابتسامة وغمز لي، يصلي الجميع بتلاوات وديانات مختلفة ثم تحركنا لنركب الأوتوبيس لينقلنا إلى الجهة الأخرى لنشتبك في معركة الموت — كما وصفوها — ولكن الموت لمن، لنا أم لهم؟ من الطبيعي ألا يعود طرف من الطرفين بيته. بداخل الأوتوبيس يتهامسون وتبدأ أجسادهم بإفراز الكثير من الأدرينالين بداخلهم وأعينهم أصبحت واسعة وعروقهم أصبحت بارزة، جالسين يكتبون وينهون رسائلهم قبل أن يسلموها إلى قائدهم ليرسلها إلى عائلاتهم في حالة لم يعودوا من تلك المعركة. ثم تحرك الأوتوبيس بعد أن انتهينا من

تسليم رسائل الوداع وأصوات الرصاص من حولنا والصواريخ، خفنا ألا نصل حتى والحصول على فرصة للاشتباك، بدأ عقلي يصور لي ماذا لو انفجر الأوتوبيس قبل أن نصل؟ يا لها من نهاية عار! سيقولون إننا متنا في طريقنا ولم نطلق رصاصة واحدة حتى. فلنكن متفقين، تمنيت ذلك قليلًا! رأيت الجثث الملقاة على أطراف الطريق والغريب أن بعض الجثث ما زالت تحتفظ بابتسامتها، وكأنهم سعداء أنهم ماتوا سريعًا ولم يطل عذابهم.

وصلنا إلى الطرف الآخر لندعم جنودنا، نظرات الرعب على وجوههم، صريخ يتعالى من الجهة الأخرى وصرخات متعالية هزت قلوبًا ظنت أنها لا تخاف. استمر تبادل النيران لساعات ويقل صريخ الجنود تدريجيًا لينتقلوا من الحياة إلى مكان آخر هادئ لا يوجد به صوت أو حروب، ليركضوا تحت التراب لفترة، أصيب صديقي برصاصة ووقع على الأرض، هرولت إليه محاولًا إسعافه.

جلس على الأرض يتألم ثم قال:

- أعتقد أنني لن أهرب هذه المرة يا صديقي.

أخبرته:

- لا تقلق، ستكون بخير.

حملته فوق كتفي وحاولت أن أضعه في أي جانب بعيدًا عن النيران، ولكن لا يوجد مكان بعيد عن النيران فنحن في وسط النيران، وقفت مكاني لا أعلم أين أذهب فألقى بنفسه من على كتفي وجلس على الأرض ينظر إلى السماء بنظرات هادئة ثم نظر إليّ ولفظ أنفاسه الأخيرة. ما زالت النيران تتطاير من حولي وتقل تدريجيًا ولم أجد إلا نفسي وحيدًا محاطًا بهدوء الموتى، هدوء بعد صريخ الجرحى، فلم تعد ملامح الخوف على وجوههم وأحلامهم أصبحت أن يكون ظلامهم على الأقل مسالمًا الآن. يقترب مني العدو، التفوا حولي والابتسامات على وجوههم، ليست ابتسامة النصر ولكنها ابتسامة النجاة، ابتسامة الهروب من الموت والفرصة لأن يعيشوا بضع سنوات زيادة. وقفت في مكاني بسلاح لا يوجد به سوى رصاصة واحدة ووجهي مليء بدماء أصدقائي، الآن أنا متأكد من النهاية، على بعد خطوات سيطلق أحدهم النيران في أي لحظة الآن، نظرت إلى السماء وأنا أرى زوجتي بها، لم أعد قادرًا على حبس دموعي أكثر من ذلك، أعلم أنها قادرة على الشعور بي، إنها النهاية ولن أهرب هذه المرة.

اقتربوا مني أكثر ويطلبون مني أن ألقي سلاحي

وأسلم نفسي لأعيش أسيرًا بداخل زنازينهم القبيحة، لم أفكر كثيرًا، اتخذت القرار قبل أن يقتربوا أكثر وأطلقت رصاصتي الأخيرة بداخل رأسي لينفجر مخي ويرتاح قليلًا.

(5)

استيقظت مفزوعًا بأوراق شجر بفمي داخل حديقة ويجلس بجانبي رجل في أواخر السبعينيات يشير إلى فمي ويضحك بأسنان فارغة وكأنني ألقيت بعض النكات وأنا نائم، استيقظت لأعود إلى عالمي الواقعي، جلست بمكاني ورأسي يؤلمني وأوراق الشجر المتطايرة من حولي وصوت الضحكات العالية، وما زال العجوز يبتسم لي وكأنني قدمت له أفضل فقرة كوميدية بحياته، وكأنه لا يريد إغلاق فمه حتى لا يعود إلى حزنه، يحاول بجهد ألا يستغني عن ضحكته لعلها ضحكته الوحيدة بحياته البائسة، ثم نهضت من مكاني لأتركه بابتسامته وتمشيت قليلًا وسط الأزهار.

قطعت أوتار أفكاري تلك الفتاة في فستانها الأحمر ترقص أسفل ظل الشجرة ممسكة بكتاب وتردد ألحانًا لأغانٍ مختلفة، شعرت للحظة أنني بداخل فيلم سينمائي ولكنه واقعي! ازدادت دقات قلبي وتنتفض روحي مجددًا، إنه نفس الشعور الذي مررت به البارحة، فاقتربت منها أكثر، لوهلة شعرت بأن جسدي هو من يقودني الآن، تتحرك قدماي وتقتربان أكثر حتى أصبحت بالقرب الكافي لأرى ملامحها كاملة.. إنها هي، تلك الفتاة التي رأيتها في المطعم، ولكن.. كيف أتت

إلى هنا، هل يجمعنا القدر، أم أنها صدفة؟ ولكنني لا أؤمن بالصدف، أنا أؤمن بأن لكل شيء سببًا. فنظرت إليّ وتوقفت عن الرقص وتغيرت ملامحها قليلًا إلى الخوف، تتساقط قطرات العرق من على وجهي بمناخ قارب على التجمد ولكن هذا لم يمنع جسدي من إفراز بحيرات من عرق التوتر، أخذت مائة شهيق وصفر زفير ثم اقتربت منها ببطء وأتأمل ملامحها ورائحتها الجذابة وكأنها صُنعت خصيصًا لها، أؤمن بأن أحيانًا الفتيات الجميلات قد تليق عليهن أسوأ العطور بسبب إفراز جلدهن لرائحة عطرة، فما بالك هي بفستانها الأحمر وعينيها الواسعتين! لم يستغرق قلبي الصائم عن الحب إلا ثواني قبل أن يترك الصيام ليشعرني بالجوع، الجوع لمشاعر ظننت أنني لم أعد أمتلكها. عندما رأيتها أول مرة أدركت أنها خطئي القادم، ولكن قلبي اختار أن ينبض مجددًا ولكل اختيار عواقب. اقتربت منها كثيرًا فتوقفت في مكانها للحظة، وابتسامة متوترة، لو لم يكن قلبي قويًا كفاية لانفجر من كم الدم الذي ضُخ به، أخذت لحظات ونفسًا عميقًا قائلًا:

- كيف حالك؟

- هل تراقبني؟

احمر وجهي قليلًا ومشاعر التوتر تزداد وثقل باللسان وأنا أقول:

- لا، بالطبع لا! لماذا تعتقدين ذلك؟

- أأنت من كنت في المطعم أمس؟

- نعم.

ابتسمت لها محاولًا استيعاب بأنني أقف أمامها، أشعر أنني أعرف الكثير عنها، لا يمكنني قول ما أعرفه ولكن أشعر أنني أعرف الكثير، أعرف لونها المفضل، وكتابها المفضل، ولحنها المفضل، حتى فيلمها المفضل، والكثير من التفاصيل عنها، ثم سرحت قليلًا في خيالي قبل أن تقطع عالمي الخيالي بكفها المار أمام عيني.

- أين سرحت؟

- لا شيء.. أنا لا أعلم حتى كيف أتيت إلى هنا!

نظرت إليّ بتعجب، وكأنها تتساءل إن كنت مجنونًا أم طبيعيًّا.

- حسنًا.. والآن هل تريد شيئًا؟

ما زلت أحافظ على ملامح الذهول على وجهي محاولًا أن أدرك إن كنت ما زلت في الحلم أم لا، فاقتربت منها أكثر وابتعدت هي خطوات إلى الخلف، ثم مددت كفي ولمست كفها، أريد أن أتأكد أنني عدت إلى عالمي الواقعي ولم أعد بالحلم، فنظرت إليّ

احمر وجهي قليلًا ومشاعر التوتر تزداد وثقل باللسان وأنا أقول:

- لا، بالطبع لا! لماذا تعتقدين ذلك؟

- أأنت من كنت في المطعم أمس؟

- نعم.

ابتسمت لها محاولًا استيعاب بأنني أقف أمامها، أشعر أنني أعرف الكثير عنها، لا يمكنني قول ما أعرفه ولكن أشعر أنني أعرف الكثير، أعرف لونها المفضل، وكتابها المفضل، ولحنها المفضل، حتى فيلمها المفضل، والكثير من التفاصيل عنها، ثم سرحت قليلًا في خيالي قبل أن تقطع عالمي الخيالي بكفها المار أمام عيني.

- أين سرحت؟

- لا شيء.. أنا لا أعلم حتى كيف أتيت إلى هنا!

نظرت إليّ بتعجب، وكأنها تتساءل إن كنت مجنونًا أم طبيعيًّا.

- حسنًا.. والآن هل تريد شيئًا؟

ما زلت أحافظ على ملامح الذهول على وجهي محاولًا أن أدرك إن كنت ما زلت في الحلم أم لا، فاقتربت منها أكثر وابتعدت هي خطوات إلى الخلف، ثم مددت كفي ولمست كفها، أريد أن أتأكد أنني عدت إلى عالمي الواقعي ولم أعد بالحلم، فنظرت إليّ

بتعجب.

- هل أنتِ حقيقية؟

نظرت إليّ قليلًا متعجبة لرد فعلي المبالغ به، ثم سحبت يدها وأخذت حقيبتها ورحلت، لم تتحرك قدماي كثيرًا وتأكدت أخيرًا أن قلبي الذي صام عن الحب لسنوات قد جمعه القدر بروح تعشقها روحي.

أعلم أننا سنجتمع مجددًا، لا أعلم أين أو كيف ولكن أعلم أن القدر سيجعلنا نلتقي مجددًا، أكملت طريقي بخطوات تتراقص فيها أصابع أقدامي بعضها مع بعض على لحن يلحنه قلبي على أوتار أحبالي الصوتية. خرجت من الحديقة لأنتظر الأوتوبيس القادم ليأخذني في رحلة العودة إلى منزلي، مستغرق الطريق ساندًا رأسي إلى الشباك أتأمل اليوم بتفاصيله ونسيت أحلامي وكل شيء، نسيت السحر و«ديجا» ونسيت كل ما هو خارق للطبيعة لأنني قابلت ما هو أفضل، هي.. ذات الفستان الأحمر. دخلت غرفتي وألقيت بجسدي المرهق على سريري لأتأمل سقف غرفتي ومتجاهلًا كل ما هو حولي، مستغرقًا ساعات لم أحصها قبل أن أبحر في نوم عميق.

استيقظت فجرًا بجفونٍ ثقيلة وكأنني لم أنم منذ أعوام ثم نهضت لأجد أي شيء قابل للأكل قبل أن

تخرج أمعائي لتبحث عن شيء بنفسها، حضرت كوب القهوة وذهبت لأجلس بالشرفة أتأمل هدوء الفجر مع الهواء البارد المغذي لرئتي، أتأمل الشوارع شبه الفارغة، وبائع الجرائد المار بعجلته، وبائع اللبن وابنه الصغير، وساقي الجنائن، والعائدين من السفر بابتسامة تعلو وجوههم والراحلين بنظرات الحزن، ثم يأتي بائع الأنابيب ليزعجهم جميعًا بخبطاته على الأنبوبة، ثم تدريجيًا يزداد عدد السيارات بالشارع ليبدأ اليوم الطبيعي، حينها أكون أنا انتهيت من ارتشاف قهوتي وارتديت ملابسي لأذهب إلى المقهى لأكمل تأملي.

نفس الملامح مع اختلاف الوجوه، ملامح الحزن التي تعلو حواجب البعض والدموع الساقطة من أعين البعض، والنظرات المتبادلة بين عم «إسماعيل» وعم «يوسف»، ونغمات أم كلثوم الصادرة من المحل المجاور، ونفس احمرار وجوه الأحباء عندما تتلامس أطراف أصابعهم ثم تحتضن أصابعهم بعضها بعضًا لتنفجر وجوههم احمرارًا ثم ينهون احتضان أصابعهم بابتسامة، ورقي أمامي والقلم بيدي فاقترب القلم من الورق كثيرًا هذه المرة، وضعت نقطة وكأن عقلي يتوسل بأن أبدأ بالكتابة، فبدأت بأول حرف ليبدأ قلمي بالكتابة فوق الأوراق قبل أن أتوقف مجددًا، كتبت

كثيرًا حتى تعرقت يدي وتصلبت أعصابي لأترك القلم متألمًا منهيًا كتابتي بقصيدة عنوانها غير معروف بعد، ثم بدأت تعود لي أفكاري وأشعة الشمس ساقطة على عيني لتدفئ منتصف وجهي، أشعر بالراحة بعد أن أخرجت بعض ما بداخلي على أوراقي فأنا لا أفصح عن ما بداخلي لأحد سوى نفسي، أخذ عقلي راحته وبدأ العودة للعمل من جديد، فكرت في أن أبدأ رحلتي في البحث عن مغامرة جديدة.

ذهبت إلى الحارة ولكن لم أجد شيئًا، بدا كل شيء طبيعيًا وأن كل ما يحدث، يحدث في وجودي فقط. هذا اليوم بدأت البحث في كل مكان بلا جدوى، ثم مرت الأيام ولم يتغير الكثير، أصبحت أعيش أيامي الروتينية من جديد، لم أقابل الفتاة مجددًا، ولم أبحث عن «ديجا» أيضًا. مستلقٍ بمنزلي على الأريكة أستمع إلى ألحان أوروبية لتهدئ أعصابي قليلًا، ثم نهضت وجلست أمام لوحة بيضاء كبيرة بنقطة سوداء كبيرة بمنتصفها ثم أمسكت بألواني وبدأت في الرسم العشوائي ويزداد إيقاع الموسيقى وتزداد سرعتي معها، أنا لا أعلم ماذا أرسم ولكنني أترك عشوائيتي ترسم ما بداخلي، قد يكون وحشًا من العالم المظلم أو ملاكًا من السماء، أو قد يكون صبيًا يحمل سكينًا أو

وردة، أو فتاة مبتسمة أو مجروحة، وقد يكون عالمًا مليئًا بالألوان والزهور، وقد يكون عالمًا مدمرًا ليس به أي شيء سوى النيران المشتعلة.

قررت أن أنام قليلًا وأكملها عندما أستيقظ ولكن لم تمر لحظات حتى أيقظتني خبطات أصدقائي على الباب، إنها ليلة دخان السجائر والحشيش، أنا لا أشرب ولكن لا يوجد لديهم مكان يتجمعون به سوى بيت العازب الوحيد بينهم، وكالعادة يدخلون المنزل بملامح الغضب والتعاسة قبل أن تتصاعد سحابة الحشيش فوق رؤوسهم ليبدؤوا بالضحك على كل ما هو ليس مضحكًا، ثم يبدؤوا التحرك حول نفسهم في حركات دائرية ويرقصون على صوت الرياح وكأنهم يحاولون أن يجدوا أي شيء ليشعروا بالسعادة حتى لو لفترة قليلة، ثم يتعبوا ويجلسوا ليبدؤوا حكاويهم عن جحيم حياتهم متنافسين فيمن سيقنع الباقي بأن حياته الأكثر بؤسًا، وأنا جالس أستمع إليهم أتعجب أنهم لم يدركوا أنني لم أخبرهم ولا مرة بأي شيء عن حياتي أو عن ما يدور بها ولم يسألوا وكأنهم يستغلون كل لحظة لكي يفصحوا عما في قلوبهم قبل أن يعودوا إلى حياتهم الطبيعية، وعندما ينتهون يعودون إلى منازلهم وكأن شيئًا لم يقل، فيعودون لحياتهم متظاهرين بمشاعر غير

حقيقية وحبهم لزوجاتهم ورؤسائهم بالعمل أو حياتهم عمومًا، بعد ليلة طويلة رحلوا ليتركوني بليلة هادئة على أنغام موسيقى هادئة أتأمل القمر وأرتشف كوبًا من القهوة ببطء.

فكرت كثيرًا أين يمكنني إيجاد «ديجا» ولكني متأكد من أنها هي من ستجدني عندما تريد هي، نظرت إلى لوحتي، أو ما انتهى منها على الأقل فلم أجد بها سوى بقعه سوداء أكبر، وفي منتصفها نقطة حمراء صغيرة، فقررت أن أتركها على هذه الحال.

أمسكت بقلمي وترتعش أطرافي وتزداد نبضاتي واحمرت عيني قليلًا وكوب القهوة الملقى بجانبي ينظر إليَّ بحسرة، فأمسكت القلم بقوة أكثر محاولًا أن أتشبث به فلن أتركه هذه المرة إلا بعد أن أحفر بعض الكلمات على أوراقي البيضاء، قلبت الصفحة وبدأت أقرأ:

«الفصل السابع والعشرون والأخير، ليلى العاشقة تسير على أطراف الكوبري المؤدي إليه، تحمل حقيبتها بعد أن هربت من منزلها وهو يقف في نهاية الطريق ينتظرها وابتسامة بلهاء على وجهها لا تعلم ماذا ينتظرها بنهاية هذا الطريق، تسير بخطوات واثقة وهي تراه أسفل عمود إنارة طويل عاكس ظلامه

فأصبح مجرد شيء مظلم منتظر بنهاية الطريق، وهي تشير إليه وتزداد خطواتها وكأنها تريد أن تصل إليه بأسرع وقت، تظن أنها تسرع إلى أحضان العشق والحب ولكنها لم تعلم أنه لم يكن حبًّا وأن عمود الإنارة حاول تحذيرها عندما ظهر كظلام ضخم مخيف، والعالم كله حاول تحذيرها، لو استمعت إلى الرياح لسمعت أنها تقول لها لا تكملي الطريق توقفي وعودي إلى منزلك، حاولت الرياح أن توقفها والأرواح الهائمة وأصوات الصمت ولكنها لم تستمع سوى لقلبها فاقتربت منه، ابتسم لها ورمى سيجارته على الأرض وحمل حقيبتها وفتح لها باب السيارة ثم قفزت بداخلها وكأنها أخيرًا ارتمت بداخل عرين الحب، بداخل عرين الأمان، ولكنك عزيزتي قد رميتِ نفسك بداخل عرين الهلاك.

ولم تمر أيام حتى ...»

لم أكتب كثيرًا في هذا الفصل، فهو عن ليلى، تلك الفتاة البلهاء التي تلاحق الحب طوال حياتها ظنًّا أننا خُلقنا للحب وليس للحياة، فأنا أخاف كثيرًا أن أصبح ليلى، أبحث عن الحب فيكون السبب في هلاكي، ما زلت أمسك بالقلم ثم اقتربت كثيرًا تلك المرة من الورقة أفكر كيف أكمل ما كتبته، فأنا أعلم النهاية وأدرك ماذا حدث لها لاحقًا، ذلك الأحمق، فأنا أعلم ماذا

فعل بها وكيف أصبحت الأميرة لا شيء سوى قطعة في منزل متسخ، لقد هربت من أجل مسخ إيمانًا بالحب ولكن الحب لم يفعل لها شيئًا. لامس قلمي الورقة وبدأت في كتابة النهاية:

«عندما تكون وحيدًا قد تصنع عالمًا خاصًا بك، تنظر إلى سقف غرفتك وتتخيل عالمًا آخر، قد تصنع صديقًا ليس حقيقيًا وتخبره بكل شيء وتفصح عن جميع أسرارك ومخاوفك، وقد تبكي في تلك الغرفة المظلمة وجسدك مليء بالخدوش وعندما تدرك أن روحك لم تعد ملكك فتبدأ بالبكاء بحُرقة، معتقدًا أنك وحيد في تلك الغرفة. أنت لا تكون وحيدًا أبدًا، ابدأ في النظر عن قرب حولك واستمع بحرص إلى الهدوء والأنفاس المحيطة بك، ابدأ في الاستماع إلى الظلام، من يعلم؟ قد يخرجون من الظلام يومًا ما.»

تركت قلمي ونهضت بابتسامة على وجهي ثم جلست أمام التلفاز وأنا أفكر في أن أبدأ البحث عن «ديجا»، ولكن لم أحتج إلى التفكير كثيرًا عندما سمعت صوتها خلفي، صرخت بشدة، كدت أن أقفز من الشرفة، ثم نظرت إليها وقلت بغضب:

- كيف دخلتِ إلى هنا؟ أنا أبحث عنكِ منذ أيام!

- أعلم ولهذا السبب أتيت.

دخلت إلى المطبخ لأحضر كوبًا من الماء.

قالت «ديجا» بملامح جدية واهتمام:

- أخبرني عما رأيته هذه المرة.

جلست على الكرسي أرتشف كوب المياه ببطء ثم أخبرتها:

- حلمت بأنني جندي وكنت بداخل معركة.

نظرت إليّ بتعجب وسألتني:

- هل رأيت موتك؟

- هل سأرى موتي في كل مرة؟

فأجابت بذهول:

- الروح اختارت يوم النهاية للمرة الثانية!

سألتها بفضول:

- متى ستكون الرحلة القادمة؟

- هذا يكفي، أنت أردت أن ترى العالم المظلم ولقد رأيت ما يكفي.

- لا.. أشعر بأنه يوجد شيء أحاول الوصول إليه ولا أعلم ما هو، يوجد شيء بداخلي يقول لي أن أكمل.

أخذت نفسًا عميقًا وهي تقول لي:

- يجب أن تدرك أن ما نفعله خطر ومخالف لقوانين كثيرة وقد نواجه الكثير من العواقب.

ابتسمت لها وأنا أقول:

- أعتقد أن لديكِ نفس الفضول وتريدين أن أكمل، يجب أن نتابع وسنواجه العواقب معًا.

ابتسمت لي وهي تنهض من مكانها ولم تفعل شيئًا سوى أنها وضعت يدها على رأسي لأصاب بالإغماء مجددًا وأغوص في عالم مظلم جديد.

(6)

ثلاث رنات من المنبه كانت كافية لتوقظني من نوم عميق، لا أعلم كم استمر ولكن نظرًا لعقلي النشط يبدو أنه اكتفى من النوم، لا يختلف ليلي ونهاري فأنا أعيش في الظلام طوال الوقت، هذا ما علمته منذ ولادتي وتعلمته وهو أن أسير في الظلام.

نهضت من مكاني أسير بخطوات واسعة وصولًا إلى الحمام لأبلل وجهي بالقليل من الماء، ثم اتجهت إلى المطبخ باحثًا عن أي شيء قابل للأكل ثم حضرت قهوتي لأمزج دمي ببعض الكافيين ثم وضعت الأكل لكلبي العجوز ليأكل القليل قبل أن يكمل نومه مجددًا، أجلس بالشرفة وأرتشف قهوتي ببطء وأستمتع بالهواء البارد الممتزج برائحة النيل وموسيقى لأم كلثوم تتراقص مفاصلي عليها قليلًا، هل يوجد ما هو أفضل من القهوة والنيل وأم كلثوم مجتمعين معًا؟

جلست بالشرفة لساعات لا أعلم عددها، ثم أمسكت بالعود لألحن بعض الأغاني وأكتب أشعارًا لحبيبتي الخيالية أنها تعيش في ظلامي الدائم، ابتسامتها ورائحتها الخيالية، فلم أجد حبيبة تتعامل مع حالتي فصنعت حبيبة تهون عليّ وحدتي ولتساعدني في قصائدي غير المنتهية. مر الوقت سريعًا ثم أتى دور

المنبه الآخر فنهضت وارتديت بذلتي الزرقاء وحملت العود البني لأتجه إلى العمل، بدأت السير بخطوات حذرة بالشارع مرتديًا نظارتي العريضة وشعرًا يأخذ على الجانب مرسى ورائحتي العطرة، أصوات كل شيء حولي، الناس الذين يهمسون والأشخاص الذين يساعدوني لعبور الطرق والبعض الآخر الذي يسخر مني، أتعامل مع جميع الأشياء حتى أصل إلى مكان عملي ليبدأ الجميع بإلقاء التحية عليّ، المكان الوحيد الذي يحبني الناس به لأنني أجلب لهم السعادة المزيفة، سعادة تنتهي مع انتهاء رقصتهم أو انتهاء مفعول الخمر بجسدهم ثم يعودون إلى عالمهم الواقعي ثم يبدؤون في ضخ الخمر بداخل أجسادهم من جديد محاولين الهروب من واقعهم الحزين.. وهكذا تستمر حياتهم بلا توقف عن الهروب، يحاولون بأقصى قوتهم لإيجاد أي سعادة مؤقتة. ملامحي لم تكن كما كانت معظم الوقت، فالحزن يتملكني وتبكي عيني بدموع ليست موجودة نظرًا لإهدارها جميعها في الفترة الأخيرة، جلست على المسرح بابتسامة أخبئ وراءها صريخًا، أجلس على كرسيّ المفضل الذي لا أعلم شكله ثم أخذت نفسًا عميقًا وبدأت أغني لهم بعض الأغاني لتتعالى أصوات ضحكاتهم ورقصهم، أستطيع سماع صوت أقدامهم وهي تتراقص ونبضات قلوبهم

المتعالية دليلًا على الإرهاق والتعب وأنفاسهم تصبح متقطعة ثم يجلسون جميعًا، حينها تكون فقرتي قد انتهت بالفعل.

نهضت من مكاني ودخلت غرفتي داخل الكازينو وألقيت بجسدي المرهق على سريري واستمعت لأغنية لعبد الحليم ليهدأ قلبي قليلًا وسط تأملي في ظلامي الدائم، سمعت صوت خبطات ودخل أحدهم فنهضت وأنا أصيح، «أيوب؟» ولكن صمت لأتذكر أنه لم يعد هنا فأنا اعتدت أن الحديث معه أمر روتيني، فنهضت من مكاني وأخذت بعض الأوراق لأتحدث معه بصورة غير مباشرة، جلست أكتب في ورقة ما يدور بعقلي عن «أيوب»، فأنا أتذكرك يا صديقي «أيوب»، صديقي ومساعدي في الحياة قبل العمل، قابلته أول مرة في نفس الغرفة.

***

أتذكر خبطات مدير الكازينو ليقدم لي مساعدي الجديد، أتذكر عندما أخذ لحظات قبل أن يلقي التحية عليّ، صوته القريب من الأرض والضعيف وخطواته الصغيرة، فمددت يدي لأسلم عليه لأتأكد، مد يده ليسلم عليّ بقبضته الصغيرة فعلمت أنه قزم بجسد ضعيف أهلكه الزمن. مرت الأيام وأصبحت علاقتنا

أقوى وازداد مرضه مع الوقت، بدأ «أيوب» في استخدام عكاز للمشي وكان يعيش وحيدًا في غرفة بمنطقة شعبية كما وصفها لي، وأنا أعيش في «الأغاخان» أتنفس الهواء الممتزج بالنيل كل صباح، بعد فترة سألته إن كان يريد العيش معي فأنا لم أجد في الدنيا مؤنس لوحدتي سوى مذياعي وكلبي العجوز، رفض عرضي ولكنه وافق بالنهاية ثم أصبحت علاقتنا صداقة وليس عمل فقط، حكاوينا وابتساماتنا التي لا تفارق وجهينا إلا في أثناء النوم، فهو يحكي عن ما يراه وأنا أحكي عن ما أسمعه وكل منا لديه حكاويه الفريدة، حكى لي عن قصة حبه الوحيدة ولكنها تركته في النهاية لأنها ظنت أنه سوف يظل في هذا الحجم إلى الأبد، فجهلاء العقل لم يُخلق الحب لهم، ولكنه حافظ على ابتسامته على الرغم من هذا. يزداد مرضه مع الوقت وتتهالك عظامه وفقرات ظهره أصبحت متحجرة وقدماه لم تعودا قادرتين على حمله فأصبح لا يفارق السرير إلا في الحالات القصوى ويجب أن يحمله أحد ولا يوجد لديه أحد سواي.

توقف «أيوب» عن العمل وازدادت كآبته زيادة على المرض فأصبحت الابتسامات لا تزورنا إلا قليلًا ثم ترحل من على وجهه سريعًا ليعود إلى همومه، فأصبح

كالسجين بداخل المنزل مما جعلني أفكر كثيرًا كيف يمكنني مساعدته؟ عرضت عليه عرضًا غريبًا.

- هل تريد أن تخرج من المنزل؟

قال لي:

- نعم، ولكن كيف؟

فابتسمت وأنا أقول له:

- ماذا لو دللتني على طريقي وأنا سأحملك على ظهري يا صديقي؟

لاحظت التغيير في تنفسه وابتسامته، ثم صمت ظنًّا أنني أمزح ولكن ملامحي لم تكن تمزح، فعدل مجلسه وتغيرت أنفاسه من جديد، أعتقد بأنني أثرت الحماسة بداخله فأنا أعطيه فرصة ليتجول حرًّا من جديد، أشعر بالدموع الساقطة من عينه وهو يقول:

- لا أريد أن أكون حملًا عليك.

فأجبته مسرعًا:

- لم ولن تكون حملًا عليَّ يا صديقي.

تردد «أيوب» قليلًا ولكن إصراري جعله يوافق وحينها أصبح هو عيني وأصبحت أنا قدميه، الجميع تعجب من رؤيتنا هكذا. كان يشرح لي كل شيء حولي فأصبحت أرى لأول مرة بعيني صديقي، بدأ يصف لي

كل الألوان وملامح الأشخاص والسيارات والحيوانات، يصف لي شكل السماء والشمس وضوء القمر، وعاشقين الحب الراقصين أسفله، ورقص الناس بالكازينو وكيف يبدو الرقص، أصبح هو الإجابات لكل أسئلتي وأصبح هو ما يشبع فضولي فلم أتوقف عن الأسئلة.

سألته:

- كيف تبدو الشمس يا «أيوب»؟

فأجابني:

- لا أعلم، ولكنها كالصحن الكبير المضيء ولا يمكن النظر إلى الشمس لفترة طويلة.

- وكيف يبدو القمر؟

فصمت قليلًا ثم أجابني:

- كالشمس ولكن أكثر جمالًا وهدوءً.

- وكيف تبدو السيدات؟

فضحك وهو يجيب:

- تراهن من بعيد كالقمر.. ومن قريب هن الشمس.. جميلات في الحالتين، ولكن مؤذيات في معظم الأوقات.

أخذت نفسًا عميقًا وأنا أسأله:

- وكيف يبدو الحب؟

فأجابني في ضيق:

- لا أعلم فالحب مختلف، لا يمكن وصفه، لا يوجد له شكل.. والحب لم يُخلق لنا على أي حال يا صديقي.

بدأنا نأكل معًا في مطاعم مختلفة ونقضي معظم وقتنا معًا ونغني، صوته كان بشعًا ولكنه كان سعيدًا وأصبحت الابتسامة صديقة لنا من جديد، فأصبح «أيوب» صديقي الذي لم أظن أنه سيأتي وأنني سوف أقضي حياتي جميعها أطارد ضوءًا خفيًا بداخل الظلام. مرت الشهور واستمررنا على هذا الحال، كان خفيف الوزن فلم يرهق عظامي ولكن المرض أرهقني أنا أيضًا فأصبحنا مرضى بسريرين متجاورين وتعتني بنا الممرضة، أنفقت الكثير من الأموال على رعايتنا الصحية قبل أن يتذكره الموت ليصبح سريره خاليًا والابتسامة لم تزر فمي منذ تلك اللحظة، فأنا أشتاق إلى ابتسامته، فزار الحزن قلبي وأنهك المرض عقلي وعظامي فأصبحت بجسد لم يعد شيء سليمًا به، تركني لأعود إلى ظلامي من جديد، لأصنع أشخاصًا وهمية وأطارد ضوءًا لا أعلم شكله وسط الظلام، مرت الأيام وعدت إلى العمل من جديد.

انتهيت من كتابة الرسالة وشعرت بالتوعك بعدها ثم بدأت نبضات قلبي في الانخفاض قليلًا وبدأت أشعر

بالدوار، فأمسكت الورقة بابتسامة قبل أن أرتمي على الأرض بانقباضات قوية، يقل تنفسي تدريجيًا ونبضات قلبي تقل بسرعة أكبر، وبعد لحظات نبض نبضته الأخيرة برسالة الوداع بيدي، أودع صديقي ولكني التحقت به، في آخر لحظاتي رأيت كل شيء بوضوح وكأن القدر قرر أن يعطيني متعة النهاية وفرصة لأودع الحياة بصورة واضحة، فأصبحت أرى سريري وعودي وبذلتي التي لم تكن زرقاء بل رمادية، و«أيوب» الذي لا أعلم ملامحه كان واقفًا يبتسم لي، أرى ملامحه بوضوح الآن، ثم عدت إلى الظلام من جديد مودعًا حياتي بالغرفة التي أمضيت بها عمري.. غرفتي بكازينو الغرام.

(7)

استيقظت بصورة مفاجئة وأتنفس بصورة سريعة لأجد نفسي بداخل غرفة يتغلبها اللون الأبيض ومتصل بعروقي بعض المحاليل ويقف الدكتور وبعض الممرضات المحيطات به ثم بدؤوا يصرخون جميعًا ويجرون بداخل الغرفة كالمجانين، سألتهم كيف أتيت إلى هنا ولكن لم يجبني أحد إلا بعد ثلاث لفات بداخل الغرفة ثم توقفوا ليلتقطوا أنفاسهم وإنقاذ صديقتهم الممرضة التي فقدت الوعي، بدؤوا بالنظر بعضهم إلى بعض، وبعد لحظات من الصمت قرر أحدهم أن يشرح لي أنهم وجدوني ملقى بالشارع وأنني فارقت الحياة وأن عودتي كانت مستحيلة وأنني اخترقت قوانين الطب الثلاثة، ما زالوا يستوعبون عودتي من الحياة الأخرى ولكنهم لا يعلمون أنني لم أكن هنا بعالمهم وأنني كنت في رحلة إلى العالم الآخر.

نهضت لألتقط أنفاسي وبدأت أزيل كل المحاليل من جسدي فحاولوا منعي ولكني أخبرتهم أني بخير فاستسلموا وتركوني أرحل في النهاية، أسير بالشارع وسط أشعة الشمس الحارقة وجفاف الهواء الممتزج بالتراب ليعمي عيني قليلًا، جلست على النيل، نفس شعور الهواء البارد الممتزج برائحة النيل، أشعر أن

عقلي لم يعد يتحمل كل هذا ومن الحكمة أن أتوقف الآن. قفز بين أحضاني قط صغير ونام بين ذراعي في مشهد غريب، يشبه كثيرًا قطي الآخر، ليس شكلًا ولكن سلوكًا، أعتقد أن جميع القطط متشابهة، بدأ يتمسح في قليلًا ثم غاص في نوم عميق، جلست فترة طويلة لا أتحرك حتى لا أوقظه من نومه ولكني نهضت في النهاية وتركته على الأرض خوفًا من التعلق به فأنا أكره الفراق، الفراق يرهقني ولن أجازف من جديد.

نهضت من مكاني وبدأت السير في طريقي ولكنه يتبعني، حاولت إبعاده ولكن بلا جدوى، اتبعني إلى منزلي بصوته المنخفض وكأنه يحاول أن يقول لي شيئًا، فتحت له باب الشقة فدخل مسرعًا إلى الداخل ونام في نفس المكان الذي كان ينام فيه قطي الآخر! يعرف الشقة وأماكنها، تعجبت من أسلوبه المشابه كثيرًا حتى مكان النوم المفضل له، لم أركز كثيرًا فأنا مرهق ولكني قررت الاحتفاظ به، دخلت غرفتي وألقيت بجسدي على السرير، كنت في نوم عميق في أقل من ثوانٍ بالفعل ولكن ليس لفترة طويلة فصوت جرس الباب المتتالي أيقظني من النوم، بنظرات غضب قد تحرق الطارق أيًا من كان، فتحت الباب لأجد «طارق» من أصدقائي حارقي النيكوتين، فدخل

وجلس بتوتر ولم يقل كلمة وترتعش يده وهو يشعل السيجارة فجلست بجانبه وسألته:

- ما الأمر؟

ملامحه الغاضبة ووجهه الأحمر الذي يوشك على الانفجار، ذهبت إلى المطبخ لأحضر له كوب مياه فمددته له فنظر إليّ بنظرات حسرة وقال:

- هل أنا سيئ؟

لم أفهم سؤاله فسألته:

- ماذا تقصد؟

أخذ نفسًا عميقًا من السيجارة وهو يقول:

- أنا.. زوجتي..

لم أفهم كلامه فهو لم يقل شيئًا، نظرات خيبة الأمل تعلو وجهه فسألته بقلق:

- ماذا حدث؟

أخذ نفسًا طويلًا آخر من السيجارة وهو يقول:

- لقد رأيتها تخونني يا «خالد»..

نظر إلى الأرض بعد أن أنهى جملته وأنا لم أعلم ماذا يجب أن أقول، ما زالت أطرافه ترتعش والجو أصبح مليئًا بسحب من دخان السجائر، فاقتربت منه وسألته:

- كيف عرفت هذا؟

- رأيتها اليوم في مطعم مع رجل ما.

- قد يكون صديقها في العمل؟

برزت عروقه أكثر وأصبحت أطرافه ترتعش بقوة أكثر وأجاب بغضب:

- ليسا صديقين وما رأيته لا يحدث بين الأصدقاء!

- اهدأ، هل تكلمت معها؟

نظر إليّ بعينين حمراوين على وشك أن تنفجر بكاءً وغضبًا قائلًا:

- أتكلم مع من! لم أكن قادرًا على التكلم بعد ما رأيته، سأقتلها لو رأيتها!

أجبته مسرعًا، وندمت على إجابتي بعد لحظات:

- «طارق».. أنت فعلت نفس الخطأ وأكثر من مرة، ولكن الفرق بأنك رأيتها وهي لم تفعل.

- هل تعتقد أن هذا مبرر؟ أنا خنتها ولكن ليس من الطبيعي أن تخونني هي. أنا الرجل وغير مسموح للرجال بأن تخونهم سيداتهم.

تعجبت من كلماته قليلًا، التحيز للسيطرة الذكورية في المجتمع التي سببها الأهالي، عاداتنا وتقاليدنا بأن الرجل له الحق في فعل ما يريد وإن أخطأ فهو مراهق وجائز له أن يخطئ، والمرأة هي التي تتبع قوانين

الرجال وإن أخطأت فتصبح كالشيطان فيحكم عليها الجميع بالإعدام المجتمعي لتصبح بداخل قوقعة مظلمة! من يخطئ فهو مخطئ سواء كان رجلًا أو امرأة. أخذت بعض الوقت قبل أن أرد عليه:

- أنت أخطأت وهي أخطأت، اذهب وأصلح علاقتك بها.

- ماذا تعني؟ تريدني أن أنسى أنها خانتني؟

- «طارق».. اذهب وتكلم مع زوجتك فأنتما الاثنان أخطأتما.

- لماذا أتيت أتكلم مع شخص معقد مثلك؟!

معقد! نعم، فمن يقول الحقيقة فهو مكروه ومن واجه الخطأ فهو غير مرغوب به.

رحل «طارق» بوجه أحمر من الغضب أو من الحقيقة، فدائمًا يغضب المخطئ عندما تواجهه بحقيقته فالحقيقة غير مرغوب بها، فيبدأ في تشكيل سلوك عدواني ليدافع عن نفسه، قد يؤذي من واجهه بالحقيقة لكي يهرب فقط من مواجهة الحقيقة، أحيانًا نعيش معظم حياتنا محاولين الهروب من حقائق كثيرة وعندما نواجه الحقيقة حينها فقط الهروب لن يكون له معنى. نهضت وعدت إلى سريري لأنام ولكن لم أستطع فصورتها أصابت عقلي، أراها بفستانها الأحمر،

بابتسامتها الساحرة ورائحتها الفريدة من نوعها، استغرقت الكثير من الوقت قبل أن يناديني النوم مجددًا لأتركها محفورة بعقلي، فأنا أشتاق إليها.. فكيف أوقف شعورًا قد حرمت قلبي منه لفترة كبيرة؟

نهضت من نوم عميق ولكن ما زال جسدي كسولًا، نهضت من السرير وأنا أسير بخطوات بطيئة كسولة حتى وصلت إلى المطبخ لأنام قليلًا وأنا ساند إلى الحائط ثم استيقظت مجددًا، وضعت بعض الطعام لهذا القط العجيب وبعض الأومليت لأمعائي الجائعة فهي لم تتوقف عن إصدار الأصوات طوال الليل وكأنها تنبح لي حتى أرمي لها بعض الطعام لتمتصه، أنهيت إفطاري وقهوتي وأنا أجلس بالشرفة أفعل ما اعتدت على فعله: التحديق إلى الناس والاستمتاع بهدوء الصباح وتحوله تدريجيًا من الهدوء إلى الضوضاء، ثم نهضت لأرتدي ملابسي ونزلت الشارع لأسير في طريقي المعتاد وإلقاء التحية الروتينية على كل من هو جالس أمام محله أو المارين بجانبي بالشارع، في البداية نلقي التحية بـ«السلام عليكم» وتدريجيًا يصبح طرف واحد فقط هو من يلقي التحية ويكتفي الآخر بأن يهز رأسه هزة خفيفة ثم يتوقف الطرفان عن إلقاء التحية، لم أذهب إلى القهوة اليوم، قررت أن أذهب إلى الحديقة أملًا في

أن أجدها كالمرة السابقة.. أسير بداخل الحديقة أنظر حولي كالمجنون، سألني البعض إن تاه طفلي أو ما الذي أبحث عنه فأخبرتهم أبحث عن فتاة كانت تأتي إلى هنا ترتدي فستانًا أحمر، فابتسم لي البعض ورحل وكأنني خذلتهم بتفاهتي من وجهه نظرهم، والبعض الآخر بدأ يبحث معي، كان المنظر مضحكًا لن أكذب، حتى صاح طفل «أهي البت أم فستان أهي!»

نظرت إليها، وجهها العاكس للضوء أصابني بالعمى ولكنه لم يصب عيني بل أصاب قلبي، نظرت إليَّ متعجبة وأنا محاط بالكثير من الناس ينظرون إليها ويضحكون، توقفت للحظات وتنظر إليَّ متعجبة من المنظر ثم أكملت طريقها إلى شجرتها، أخذت أنفاسي ثم اقترب مني أحدهم وهو يربت على كتفي «ربنا معاك يا بطل»، نظرت إليه بتعجب ثم اتجهت إليها وهي تنظر إليَّ بالقليل من الغضب فأخذت نفسًا عميقًا وهي تقول:

- نعم؟

- أعلم أنك غاضبة بسبب ما حدث وجئت لأعتذر لكِ.

- لا تقلق أنا لست غاضبة، هل يوجد شيء آخر؟

قرأت منذ فترة أن كل ما هو جميل مغطى بطبقة قاسية لتمنعه من خبطات الدنيا فلا يمر أحد من هذه

الطبقة سوى القليل، أنا أعذرها فأنا بالنسبة لها مجرد مجنون، تائه. ابتسمت لها وأنا أقول:

- أعلم أنني بالنسبة لكِ مجرد شخص مجنون و—

قطعت كلامي بابتسامة:

- لا أعدك شيئًا ولكن لديّ «الروتين» الخاص بي وأنت تعطلني الآن.

كلامها القاسي كان جارحًا ولكن سألتها على أي حال:

- هل يمكنني أن أبقى؟

نظرت إليّ بتعجب قائلة:

- الأفضل لا.

- هل يمكنني أن أعرف اسمك على الأقل؟

- اسمي «مريم».

ابتسمت لها وأنا أتخذ خطواتي مبتعدًا في حسرة وألم ثم جلست أشاهدها من بعيد، أراها جالسة تقرأ كتابها على نغمات أوروبية قديمة، لتشكل لوحة فنية قد أقسم أنني رأيتها في متحف اللوفر لو لم تكن هي أمامي الآن، أعتقد أنها انتهت من قراءة كتابها ثم بدأت النظر حولها قليلًا في خيبة أمل، قد يكون حزنًا، لا أعلم، ثم تغيرت ملامحها قليلًا من ابتسامتها الدائمة إلى قليل من الحزن، ثم أغلقت كتابها وجلست ساندة

برأسها إلى شجرتها الخاصة، وكأن القدر أرسل لي فرصة لانتهازها فأحزن القدر روحها ليعطي فرصة لروحي أن تلقي بشباكها، نهضت وذهبت مسرعًا إلى عربة أكل سريع واشتريت بعض «الساندويتشات» والعصير وذهبت مسرعًا إليها ولكنها كانت رحلت بالفعل، وكأن القدر خدعني ليصفعني على وجهي وهو يبتسم، لم أعلم ماذا أفعل فوقفت مكاني في خيبة أمل حاملًا أطباق الأكل، ثم أتى الرجل العجوز الفاقد للأسنان وأخذ الأكل من بين يدي مبتسمًا لي ورحل. اتجهت إلى الشجرة ووقفت أمامها قليلًا أتعجب، لماذا رحلت؟ وماذا عن روتينها؟ ماذا حدث؟ أيتعكر مزاج الملائكة مثلنا؟ أم أنها بشر ولكنها تفوقت عن الباقي جمالًا فقط؟

جلست على الرصيف قليلًا واضعًا يدي بين رأسي في حيره وألوم نفسي، فلولا الأكل لعلي قد لحقتها، أم أنقذني القدر حتى لا أثبت لها أنني مجنون بالفعل؟ رن هاتفي من رقم غريب فأجبت، فنهضت مسرعًا وأخذت تاكسي واتجهت إلى مستشفى الأمراض النفسية.. وصلت إلى المستشفى ودخلت بخطوات سريعة حتى وصلت إلى مكتب الاستقبال:

- أنا هنا لزيارة «نادين مرزوق».

«نادين».. هي أختي الوحيدة وتم حجزها منذ فترة كبيرة عندما أصبحت مهووسة بالكلام عن السحر وأنها ترى أشياء لا يمكننا رؤيتها ولم يصدقها أحد، فتحولت ملامحها البريئة إلى ملامح أكثر قسوة وأصبح شعرها مختلفًا وابتسامتها، وأحيانًا أشعر بأن لون عينيها أصبح مختلفًا، حاولت إخراجها عدة مرات ولكنني فشلت بسبب أفعالها.

أعطاني الموظف استمارة فملأتها ثم سألته:

- هل «نادين» ما زالت في عنبر 21؟ صحيح.. لقد أشتقنا لأعمالك، أتمنى أن نرى عمل جديد لك قريبًا

- نعم.. أنت تعلم أن الحالات مثل «نادين» يجب أن تكون في عنبر 21.

شعرت بالفرح قليلًا وتعجب بأن لي معجبين في مستشفى الأمراض العقلية، فأنا من كُتاب الظلام، فأنا أكتب عن العوالم التي لا نراها وعن ما كل ما ينكره عقلنا وفي الغالب أكتب عن ما تؤمن به «نادين» ولكنني أقول إنه خيال حتى لا يتهمني أحد بالجنون، فقد رأيت الكثير واعتدت أن أبحث في القبور عندما كنت صغيرًا مع أبي ولكن بعد وفاته لم أبحث في المقابر من جديد واكتفيت بالذكريات وأكملت حياتي بداخل الكتب، أتذكر عندما عملت وأنا صغير في ذلك

المكتب الكئيب والموظفين الذين قد يستخدمونهم في أفلام الزومبي أو أي كائنات مرعبة نظرًا لقرب الملامح والحركة بأنيابها الطويلة وذيولها الخفية، لم أعمل لوقت، فلم أحتج إلى المال حينها على أي حال، ثم ركزت في الكتابة ونشرت الكثير من الكتب وأصبح البعض يعرفني. حسنًا، لم أكتب منذ فترة وأصبحت كلماتي ثقيلة وأوراقي لا تتقبل أي كلمات مني، وعقلي لم يعد يحاول حتى أصبحت خيوط العنكبوت منتشرة في جميع أركان مكتبي، عند دخولي المكتب يتوقف الزمن ولا يعود للعمل إلا عندما أخرج منه.

أحيانًا أتساءل لماذا لم ينتهِ بي الحال أمام لوحة كبيرة وألوان متنوعة وكل ما يشغلني هو كيف أمزج هذه الألوان لأصنع لوحة كبيرة لا يفهمها سوى القليل يتأملونها لساعات ويبدؤون بصنع نظريات ويتخيلون المغزى الحقيقي وراء تلك اللوحة، في حين أنني كنت أحاول أن أرسم بطة تطلق نيرانًا ولكنني فشلت، أو أجلس أمام شاشه كمبيوتر أراقب الكاميرات وفي الدرج المئات من أكياس الحلويات وبطن منتفخة قد يحتاجون أن يجدوا غرفه أكبر لي، أو لماذا لم ينتهِ بي الحال في عنبر من هذه العنابر لأخبر المعالجين النفسيين عن نظريات كل ما هو مخفي عن الطبيعة

لأحكي عن كل نظرياتي في شغف وهم يجلسون بمخ نصفه نائم حتى أنتهي من كلامي ليحقنوني بحقنة مهدئة لأنام لساعات، قد ينتهي بي الحال بجانب «نادين» إذا أخبرت أحدًا عن ما رأيته أنا. أتي الممرض لي قائلًا:

- جاهز؟

نهضت من مكاني ورتبت هيئتي ثم اتجهت إلى عنبر 21، فتحوا لي الباب ودخلت، «نادين» مستلقية على السرير شاحبة اللون وملامحها مرهقة، تبدو أكبر سنًّا في حين أنها أصغر مني بسنوات قليلة، شعرها بخصلاته البيضاء، نظرت إليَّ ببعض الدموع ومدت ذراعيها لي فاحتضنتها، نظرت إليَّ بحزن فاقتربت منها، قبلت رأسها وأنا أقول:

- أنا آسف يا حبيبتي، أعلم أنني لم أزرك منذ فترة.

أخذت نفسها ببطء وهي تقول:

- أشعر بأنني اقتربت من البداية.

- بداية ماذا؟

- بدايتي في العالم الحقيقي.

- وستتركينني؟

ابتسمت لي قائلة:

- لا تقلق سأكون حولك، لن أظل محبوسة هنا دائمًا بسبب أن العالم خائف من الحقيقة، للأسف يا «خالد» الكل أصبح يخاف من كل شيء، ويخافون أن يستمعوا إلى قصص الظلام وما لا يرونه، يعتقدون أن الحياة مجرد أشخاص تأتي إلى الحياة وأشخاص أخرى ترحل.

فتأملت كلامها قبل أن أقول:

- لا تقلقي، سيدركون كل شيء في الوقت الصحيح.

تغيرت ملامحها ونظرت إليّ بتعجب ثم جلست في مكانها واقتربت من وجهي، تشمني وتتحسس ملامحي ثم سألتني بتعجب وملامح خوف:

- «خالد»، ماذا فعلت؟

فتعجبت من سؤالها قائلًا:

- ماذا تقصدين بماذا فعلت؟

أطالت النظر في عيني قليلًا ثم استلقت مجددًا وهي تقول:

- لا أعلم.. فعيناك بهما شيء غريب.

- ماذا تقصدين؟

- ماذا فعلت يا «خالد»؟

غضبت من كثرة الأسئلة فأجبتها بغضب:

- لم أفعل شيئًا يا «نادين»، ماذا بكِ!

وضعت يدها على يدي، شعرت لوهلة أني انعزلت عن عالمي، نظرت إليَّ برعب ثم ازدادت أنفاسها قليلًا وتزداد ملامحها خوفًا:

- عيناك هي نافذة روحك.. وعيناك مختلفتان.. روحك مختلفة.

تعجبت من كلامها، فأعتقد أنها تعلم ماذا يحدث، ولكن ماذا تقصد بأن روحي تغيرت؟ «نادين» كانت تبتسم لي، شعرت بأنها تريد أن تقول شيئًا ولكن دخل الممرض وطلب مني الرحيل، فنهضت من مكاني وقبلت رأسها ثم اتجهت إلى الباب ثم ندهتني قائلة:

- احترس يا «خالد»، وسنتقابل من جديد قريبًا، قبل أن تبدأ البداية.

اتجهت إلى منزلي وأتعجب قليلًا من نظراتها وكلامها، عندما وصلت إلى المنزل وجدت ظرفًا على الأرض أمام باب الشقة، أخذته ودخلت إلى غرفتي، نظرت إلى المرآة ولكنني لم أجد أي تغير في عيني، فلماذا قالت «نادين» ذلك؟ جلست على السرير وفتحت الظرف لأجد بداخله مسحوقًا وورقة مكتوبًا عليها «لو لم تستسلم بعد، فيمكنك خلطها بدمك وشربها، وإذا استسلمت فأرجوك دمره.» تعجبت قليلًا

من الجواب ولماذا لم تأتِ بنفسها، ولماذا اكتفت بإرسال مسحوق وورقة؟

إذا اختفت «ديجا» فلن أجدها إلا عندما تريد هي ذلك، ولكن ترددت قليلًا، ماذا عن كلام «نادين»؟ كيف شعرت بأنه يوجد شيء غريب بي، وأيضًا ماذا لو لم أعد إلى هذا العالم مجددًا؟ عندها لن أرى «مريم» من جديد! ولكنني دائمًا أعود.. روحي ستعود بالتأكيد لتراها.. ولكن ماذا لو لم تقبل بي؟ وسأظل من وجهة نظرها المجنون الذي يطاردها إلى الأبد، ولكن أنا لست أطاردها فالقدر هو من يجمعنا.. أصبح عقلي وقلبي يتعاركان. أخذت نفسًا عميقًا وألقيت بجسدي على السرير مستعدًا للرحيل، خلطت دمي بالمسحوق والمياه، أخذ المسحوق بعض الوقت قبل أن يبدأ مفعوله ثم تدريجيًا أفقد الوعي.

(8)

أجلس بركن مظلم بأنفاس عالية ونبضات قلب كادت أن تخترق غلاف قلبي، تعلوني نافذة ليمر شعاع ضوء بمنتصف الغرفة، وسريري بجانبي وسله القمامة وبعض الكتب المقطوعة، بدأت أحفر بأظافري على الحائط، أظافري كانت على وشك الاقتلاع من أصابعي قبل أن تبدأ أصوات تحوم من حولي تهاجمني.

«أنت فاشل.. لن تخرج من ذلك المستشفى.. الجميع يكرهك.. لا أحد يريد أن يتكلم مع مريض!»

وأخيرًا انتهت الأصوات بآخر جملة، «انتحر!» تزداد الأصوات حدة والهمس الخارج من داخل الجدران المزينة برسومات ممتزجة بالدماء والفرشة المستخدمة هي أظافري، ارتميت بمنتصف الغرفة محاولًا الابتعاد عن هذه الأصوات لأجد نفسي بأسفل شعاع الضوء الوحيد الداخل من فتحة صغيرة بالحائط، نظرت إليه لأتوه قليلًا في عالم من خيالي، وكأنني نجم على المسرح والضوء مسلط عليّ وأرى الجميع يهتف لي ويرمون الورود لتزين قدمي العارية ويحتضنني جميع الممثلين، أتحرك وما زال الضوء يتبعني ثم وقفت قليلًا بغرفتي أهتف لهم قبل أن تغيب الشمس قليلًا، ليختفي الشعاع فأعود لظلام غرفتي لأواجه همس الجدران من

جديد، نهضت وألقيت نفسي على سريري وغطيت رأسي وأنا أصرخ. أسمع خطوات قادمة نحوي وتزداد مسام جسدي بإفراز المزيد من العرق وحرارة جسدي ترتفع، ثم توقفت الخطوات وشعرت بشخص يجلس بجانبي، أزلت الغطاء ببطء لأجدها جالسة بجانبي، إنها أمي، فرحت كثيرًا فاحتضنتها، فأنا لم أرها منذ زمن، تركتني أواجه الكثير وحدي.. كل الأصوات توقفت عندما رأيت أمي، فابتسمت لي ثم قلت لها:

- اشتقت إليكِ!

نظرت إليّ بشفقة وهي تقول:

- وأنا اشتقت إليك يا صغيري.

- أنا مرهق.. لماذا رحلتِ؟

- أنت تعلم يا صغيري أنه لم يكن اختياري.

- أعلم.. ولكني أصبحت وحيدًا، كل شيء أصبح ضدي.

ابتسمت قليلًا قبل أن أكمل كلامي:

- يعتقدون أنني مجنون، وحبسوني بداخل هذا المكان منذ فترة كبيرة، ساعديني على الخروج من هنا يا أمي!

نظرت إليّ ولم تجِب فأكملت كلامي:

- انظري ماذا رسمت، هل تتذكرين عندما كنتِ دائمًا تقولين لي أن أرسم لأني موهوب.. ولكن الجدران سيئة يا أمي.. أحيانًا تهمس وأحيانًا تصيح في وجهي غضبًا.

- يجب أن تواجه هذا.

- لا أستطيع، الجدران تصمت عندما تكونين أنتِ هنا، لا ترحلي أرجوكِ، أنا خائف!

- كنت أتمنى لو كان اختياري.

- هل تتذكرين هذا؟

التقطتْ لعبة لكلب صغير مكسور دماغه قائلًا:

- لقد انكسر دماغه.. أبي كسرها ولكن بالتأكيد لم يقصد هذا، صحيح يا أمي؟ أنا أعلم أن أبي يحبني، لم أره منذ فترة ولكن أسمع صوته أحيانًا.. انتظري قليلًا، قد يأتي وتسمعينه معي.

ابتسمت أمي ثم نهضت من مكانها وبدأت تزداد أصوات الهمس كلما ابتعدت أمي عني حتى أصبحت الأصوات بأقصى قوة مع رحيلها، محبوس في ذلك المستشفى الرديء بلافتة مستشفى المرضى العقليين وكأنهم يحذرون الناس وليس لإخبارهم بأنه مستشفى، فنحن المجانين خطر عليكم! أجلس بتلك الغرفة القديمة وباب حديدي مزين بأقفال كثيرة وفتحة

صغيرة لرمي بعض الطعام والأدوية لي كل يوم وكأنني حيوان مفترس. بعد أن رحلت أمي انهالت الدموع من عيني وتتحول تدريجيًا لضحكات عالية قبل أن أنهض لأصرخ للجدران لتتوقف وبالفعل استجابت.

توقفت الأصوات ثم جلست على سريري مبتسمًا وعدلت هيئتي ورتبت شعري وأمسكت بكتاب من كتبي، لأقرأ كلمات قد كتبتها أرواح رحلت عن العالم ولم يتبقَّ سوى كلماتها، وأمسك بكوب من الشاي الخيالي، لحظات الليل الهادئة من دون أصوات قبل أن تدخل حبيبتي لتجلس بجانبي لتمر بأطراف أصابعها على خصلات شعري في حركة دائرية واحدة وتغني لي، هدأت أعصابي لفترة صغيرة قبل أن أقول غاضبًا:

- أين كنتِ؟

- في العمل..

همهمت قليلًا وأنا أنظر إليها بشك:

- هل تخونيني؟

- بالطبع لا.. أنا أحبك.. لن أجد شخصًا أفضل منك.

احمر وجهي قليلًا قائلًا:

- أنا أيضًا أحبك، ألم تملي لأنني دائمًا هنا؟

- لا.. يجب أن تنام قليلًا.

- حسنًا.. غني لي قليلًا.

عادت للغناء وهي تداعب خصلاتي بحنية وكأن خصلات شعري متصلة بأعصابي، هدأت كثيرًا، أغمضت عيني فقبلت رأسي ونهضت لتتركني وحيدًا، ملقى على سريري الأبدي. يقولون إن الحب قد يكون قاتلًا وقد يكون منقذًا.

هرب النوم من عيني فجلست على السرير لأكمل قراءة كتابي، يقول الكاتب:

«الكلمات قادرة على تحويل أعقل العاقلين إلى الأكثر جنونًا، وتحويل العاشق إلى خائن، وتحويل المظلوم إلى ظالم، وتحويل الوردة ذات الرائحة العطرة إلى وردة محاطة بأطراف سامة.»

لحظة من الهدوء لأصبح في عالمي الخارجي من جديد، ولكن أي عالم خارجي؟! فأنا هنا منذ ... لا أعلم، فأنا لا أعلم ملامحي، أتحسسها بأصابعي وذقني التي أصبحت غزيرة، لا أعلم شكلها أو لونها فلم أمتلك ولا شعرة واحدة بذقني عندما دخلت هنا، أرى ملامحي مشوشة في انعكاس الباب.

خبطت على الباب فصاح أحد الممرضين واقترب من الباب ثم دخل غاضبًا وهو يقول:

- ماذا تريد؟

- متي ستأتي أمي من جديد؟

- أمك من؟

- أمي، كانت هنا في الصباح.

فنظر إليّ في صمت قليلًا ثم قال:

- آه.. آه، ستأتي قريبًا.

- وحبيبتي؟

- وحبيبتك أيضًا.

طالت نظراته المتعجبة قليلًا ثم خرج من الغرفة، رأيت القليل من انعكاس صورتي بداخل عينيه ولكن لم أكترِث فخبطت على الباب من جديد فسمعت الممرض يصيح بالخارج ويطلب من ممرض آخر أن يدخل لي، دخل الممرض، لم أره من قبل، وأخبرته بأنني أريد مرآة، كانوا دائمًا يرفضون ولكن هذه المرة استجابوا لي، فإن الإزعاج قد أدى إلى النتيجة المرغوب فيها.

استغرق الممرض دقائق ثم جاء بمرآة صغيرة لي، أمسكتها قليلًا مغلقًا عليها يدي، ترددت قليلًا قبل أن أنظر إلى ملامحي.. أخذت نفسًا عميقًا وجلست على السرير ورفعتها قليلًا، أنظر إليها وأنا أمر بأصابعي بين ملامحي، صعودًا من خصلات ذقني مرورًا بفمي، وأمر بإبهامي على خدي الأيمن لأتحسس خدودي، والسبابة

على أنفي وباقي أصابعي على خدي الأيسر، أشعر بالعظمة التي كسرتها وأنا صغير بأعلى أنفي، ثم صعودًا إلى عيني بجفونها الكبيرة وعيني الخضراوين المرهقتين، ثم أمر بيدي بين خصلات شعري البني الخفيف — الذي كان مكتملًا عند دخولي هنا — فابتسمت قليلًا، ما أسوأ من أن شخصًا لا يعلم حتى ملامحه؟ وضعت المرآة بجانبي منتظرًا أن يأتي ويأخذها، استلقيت على السرير واضعًا كفي وراء رأسي مبتسمًا ونغمات وهمية تراقص خصري، ولكن توقف كل هذا عندما عادت الأصوات مجددًا، ولكنها لم تكن أصواتًا فقط هذه المرة، فأنا أدري مصدر الأصوات، أرى أبي وأصدقائي، جيراني الكثير منهم واقفين يشيرون إليّ ويضحكون، ثم تقدم أبي بجرح واضح على رقبته ودماء تغطي ملامحه، نظر إليّ بغضب وهو يقول:

- هل أنت سعيد بما فعلته بي؟

فنظرت إليه بغضب قائلًا:

- أنت من اضطرني إلى فعل ذلك، لن أنسى ما فعلته بي أنا وأمي، كان يجب أن أنقذها منك!

- وقتلي كان الحل؟

- لا.. لا! لم أقتلك.. كنت أحاول تحذيرك فقط، كان يجب أن أنقذها منك، الجدران أخبرتني بذلك ولكن

على أنفي وباقي أصابعي على خدي الأيسر، أشعر بالعظمة التي كسرتها وأنا صغير بأعلى أنفي، ثم صعودًا إلى عيني بجفونها الكبيرة وعيني الخضراوين المرهقتين، ثم أمر بيدي بين خصلات شعري البني الخفيف — الذي كان مكتملًا عند دخولي هنا — فابتسمت قليلًا، ما أسوأ من أن شخصًا لا يعلم حتى ملامحه؟ وضعت المرآة بجانبي منتظرًا أن يأتي ويأخذها، استلقيت على السرير واضعًا كفي وراء رأسي مبتسمًا ونغمات وهمية تراقص خصري، ولكن توقف كل هذا عندما عادت الأصوات مجددًا، ولكنها لم تكن أصواتًا فقط هذه المرة، فأنا أدري مصدر الأصوات، أرى أبي وأصدقائي، جيراني الكثير منهم واقفين يشيرون إليّ ويضحكون، ثم تقدم أبي بجرح واضح على رقبته ودماء تغطي ملامحه، نظر إليّ بغضب وهو يقول:

- هل أنت سعيد بما فعلته بي؟

فنظرت إليه بغضب قائلًا:

- أنت من اضطرني إلى فعل ذلك، لن أنسى ما فعلته بي أنا وأمي، كان يجب أن أنقذها منك!

- وقتلي كان الحل؟

- لا.. لا! لم أقتلك.. كنت أحاول تحذيرك فقط، كان يجب أن أنقذها منك، الجدران أخبرتني بذلك ولكن

الجدران أصبحت تكرهني الآن.

بدأ الجميع بالغضب ويزداد الهمس من حولي وكلماتهم أصبحت تستنزف آخر أنفاسي، تمنيت حينها بأن تتوقف جميع الأصوات ويذوقوا ما يفعلونه بي، تزداد ملامح الغضب على وجوههم وهم يتقدمون، ازداد الهمس وأصبح صياحًا وبدؤوا في ترديد كلمة «انتحرا!» فصرخت بصوت عالٍ ثم أمسكت بالمرآة المجاورة لي مع دموعي الساقطة، وابتسامتي نتيجة لخيبة الأمل وكيف خذلت نفسي.

كسرت المرآة لأمسك بقطعة من الزجاج ووضعتها على شراييني قبل أن أسمع بكاء صادر من خلفهم، أمي على ركبتيها تبكي وتنظر إليّ بحزن تتأسف لي، لماذا تتأسف، فموتها لم يكن قرارها فهذا قدرها؟ فابتسمت لها وأنا أمر بقطعة الزجاج الباردة فوق عروقي لتسيل الدماء، ابتسموا جميعًا ورحلوا من الجدران التي أتوا منها، ثم اقتربت أمي مني وهي تبكي لتحتضني والدماء تسيل حولي، نظرت إليّ بحزن ولم تتوقف عن التأسف، نظرت إليها وأنا أبتسم لها، ثم انفتح باب الغرفة ويصرخ الممرض ولكن الأوان قد فات بالفعل، ودعت غرفتي التي نسيت ملامحي بها والتي حفرت بأظافري على جدرانها، سقطت دموع أمي فوق وجهي

وكأنها كانت حقيقية ثم توقفت نبضات قلبي بالكامل.

(9)

استيقظت نشيطًا ومرهقًا في نفس الوقت، بالكاد أشعر بطقطقة مفاصلي فجلست على السرير قليلًا بدوار الأنيميا، وأبحث عن نظارتي التي أبحث عنها في كل صباح، نهضت ونظرت في المرآة لأرى ملامحي المرهقة ولون وجهي الشاحب وجفوني الوارمة، فتحت صنبور المياه لأتأمل المياه الجارية قليلًا قبل أن أرمي رأسي أسفلها، أشعر بأن المياه تثقب رأسي من الخلف لتغسل عقلي ثم تنزل على عيني لتيقظها من النوم، ولكن لم تكن المياه كافية فأغلقت صنبور المياه وألقيت بجسدي أسفل «الدش» ليمر الماء الدافئ بين خصلات شعري ليداعب خلايا عقلي المرهقة مرورًا بملامحي ليزيل القليل من الكآبة من عليها ثم مرورًا بباقي جسدي ليأخذ القليل من السلبية معه ليرميها بالمجاري لتعوم بها الفئران فتصبح قبيحة يخافها الناس، لهذا علينا أن نتخلص من السلبية دائمًا حتى لا يخافنا الناس، ويا لها من فئران مسكينة!

خرجت من الحمام وذهبت إلى المطبخ، شربت أكثر من ثلاثة أكواب قهوة ولم أفصل بينها سوى بقطعة بسكويت صغيرة ثم جلست بالشرفة، أمسكت بكتاب لصديق مغربي لي فهي روايته الرابعة عن أرواح

المغرب وسحرة الكهوف، ويحاول إثبات في روايته الأخيرة أن السحر انتهى منذ زمن وما يوجد الآن هو مجرد خدع بصرية وصدف.

أرسلت إليه بأن السحر ما زال موجودًا يا صديقي ولكنك لن تعرفهم ولن تصل إليهم وهم يعيشون وسطنا على أي حال ولكن لن يُظهروا أنفسهم للعلن بل يكتفون بأن يتموا أعمالهم في صمت، ولكنه ما زال مصرًا على رأيه فلم أناقشه كثيرًا، فالكاتب دائمًا يتعجرف عندما يشكك أحد في نظرياته وكأنك تتهمه بالجهل ولا يزعج الكاتب شيء أكثر من أن تشكك فيما يؤمن به.

بدأت أقرأ الكتاب وسط ضجيج الشارع ونباح الكلاب والرياح الحاملة للتراب وموسيقى قديمة لمغنٍ كلاسيكي وجدوه متوفى وهو يكتب أغنيته الأخيرة عن الحياة وأن الموت لا يأتيك فجأة. قرأت أكثر من نصف الكتاب، الساعة قاربت الثالثة فتركت الكتاب وجلست في غرفتي مع قطي العجوز بنظراته الغريبة، أحيانًا أتذكر عندما قال أبي إنه سيكون موجودًا دائمًا حولي، ماذا لو كان هذا القط هو أبي؟ فنظراته غريبة وأفعاله غريبة! توقفت عن أفكاري الغريبة وبدأت أفكر في «مريم» فلم أفكر فيها منذ فترة، أشتاق إليها وأنا لا أعلم عنها شيئًا، فقررت أن أنزل إلى الحديقة وآخذ

المذياع القديم الخاص بي.

جربت جميع ملابسي ولكن جميعها جعلتني أبدو كشخص بائس بدين من خصره فقط، فجلست قليلًا أمام المرآة ثم قررت أن أستخدم شريطًا لاصقًا على خصري ليجعله يبدو أصغر وارتديت فوقه بنطلونًا جينز قديمًا وقميصًا أبيض وجزمتي، ثم حملت حقيبتي ونزلت مسرعًا ليحدث نفس تبادل النظرات بيني وبين البواب والسيارة، ولكن تحركت مسرعًا لأركب بأتوبيس متجه إلى الحديقة، الازدحام بالكاد جعلني أصرخ فكنت على وشك أن أخلع بنطالي والشريط اللاصق فأعتقد أنه من أغبى الأفكار التي فكرت بها يومًا ما، ولكن سينتهي بي الحال أسفل عجل الأوتوبيس إذا فعلت ذلك. نزلت في محطتي بقطرات العرق الساقطة من على وجهي، جلست على جانب الطريق قليلًا لآخذ أنفاسي ثم اتجهت إلى نفس المكان حيث التقيت بها المرة السابقة، رأيتها بأسفل نفس الشجرة مرتدية فستانًا أزرق مزينًا بالورود وتمسك بالكتاب، تتراقص على نغمات بطيئة ويتراقص الظل معها، بحثت عن الكاميرات قليلًا فكيف لا ترصد جمالها الكاميرات؟! تحركت اتجاه الشجرة فلم أبدِ أي اهتمام لها وتظاهرت بأنني لا أراها فاكتفيت بأن أجلس أسفل

نفس الشجرة ثم أخرجت المذياع، تنظر إليّ متعجبة ولكن ما زلت أتظاهر بأنني أتجاهلها، وضعت المذياع بجانبي وشغلت موسيقى ذات نغمات راقصة وبدأت أهز رأسي مع الموسيقى بصورة مضحكة، سمعت ضحكتها المكتومة فاحمر وجهي قليلًا وتوقفت عن الرقص السيئ واكتفيت بأن أجلس في صمت، وهي توقفت عن حركاتها الراقصة الخفيفة وجلست بجانب مذياعها ذي المظهر الحضاري وتبدو عليها ملامح الضيق فأنا اخترقت مساحتها الشخصية، ولكنني حافظت على مساحتها فأنا أجلس على بعد خطوات أقرأ كتابي، حتى صاحت في ضيق:

- هل يمكنك أن تخفض الصوت قليلا؟!

فنظرت إليها متظاهرًا بأنني لم أسمعها:

- نعم؟

فهمست في غضب:

- أحمق!

ثم ابتسمت ابتسامة مزيفة وهي تقول:

- هذا الشيء، أخفض صوته قليلًا، لا يمكنني التركيز.

- بالطبع.

فرفعت مستوى الصوت قليلًا لأشعر بغضبها، أحببت شكلها وهي غاضبة وهذا فعل لا أفتخر به ولكن نظرتها

مع أنفها الصغير الذي صعد إلى الأعلى قليلًا وخبطات قدميها على الأرض وانتزاعها للعشب ونفخاتها المتتالية..

ثم تكلمت بضيق مجددًا:

- ما الذي أتي بك إلى هنا؟ أنت تعلم أن هذه بقعتي الخاصة!

فأجبتها بهدوء:

- أنا لم أقترب منكِ ولم أتكلم معكِ حتى! وفي الحقيقية أنتِ من تحاولين التكلم الآن.

- أنت هنا لمضايقتي!

- لا، أنا هنا لأقرأ والاستمتاع بالموسيقى والجو الهادئ.

صمتت للحظات قبل أن تقول:

- أخفض صوته قليلًا.

نهضت من مكاني لأشتري بعض الأكل وتركت المذياع والكتاب على الأرض فصاحت مريم مجددًا:

- أين أنت ذاهب؟ أخفض الصوت!

- عندما أعود.

ذهبت إلى عربة أكل قريبة واشتريت الطعام، استمعت في الصباح بأنك عندما تتجاهل من تحب فهو

يحبك أكثر وإن أشعرته بالاهتمام الزائد فدائمًا يهربون، وهذا ما أحاول تطبيقه، على ما أظن، فعندما أعود إلى مكاني فأنا أعلم أن قلبها سيبدأ بالنبض، لم أجد المذياع عندما عدت.

فسألتها بتوتر:

- أين المذياع؟

- لا أعلم ما الذي تتكلم عنه.

أرى ابتسامتها الخبيثة فسألتها مجددًا بتوتر أكثر:

- أين هو؟

فأجابت بعدم اهتمام:

- بصراحة لا أعلم، هل من المفترض أن أشاهد أغراضك؟

جلست بمزاج منقلب وتتعالى ملامح الغضب وجهي، فذلك المذياع يعود إلى والدي الذي ورثه عن أبيه، أنظر في كل اتجاه حتى رأيت رجلًا يمشي بعيدًا حاملًا مذياعي فنهضت من مكاني وجريت وراءه وأنا أصرخ، «حرامي!» فنظر إليّ خائفًا فقفزت عليه لأسقطه أرضًا وهو يصرخ ثم أخذته منه، فنهض ليلتقط أنفاسه وأنا أصيح، «أنت من سرق المذياع!»

فغضب كثيرًا ويقول لي بأن الفتاة التي تجلس هناك أعطته له، فنظرت إليها بوجهها الأحمر وضحكتها

الواسعة، اعتذرت إليه كثيرًا ثم عدت إلى مكاني ووضعته بجانبي بابتسامة وما زالت الضحكة على وجهها فقلت لها بابتسامة:

- فعلًا؟

فضحكت بصوت عالٍ، كانت هذه من أسعد لحظاتي، ضحكتها العالية أغلقت عينيها واحمر وجهها ثم نظرت إليَّ بحيرة لا تعلم كيف تجيب:

- أنا آسفة ولكنك أزعجتني، ولم أستطع التركيز.

- حسنًا.. أنا آسف.

خفضت الصوت وابتسمت لها وأنا أمسك بكتابي ولكن لم أقرأ حرفًا فأنا أفكر في كيف أتكلم معها، كيف تصبح مساحتنا واحدة، كيف أقرب الخطوات أكثر. أمسكت بالطعام، بدأت آكل وأنا أتظاهر بأنني أقرأ ثم التفت لها ومددت إليها الطبق فابتسمت وأخذت ساندويتش، كانت هذه فرصتي وكأن الساعتين اللتين استغرقتهما أفكر كيف أتكلم معها لأكسر حواجز الخجل بداخلي — نعم الخجل — كانت الإجابة سهلة، أن أطلب منها أن تأكل معي، بالرغم من أن الأكل قد تجمد بالفعل، ولكن هذا ما أتى في بالي، فنهضت من مكاني لأقترب خطوات قليلة قبل أن أرى ملامح التوتر على وجهها، فتوقفت على بعد خطوات، ما زالت بعيدة

ولكنني اقتربت قليلًا على الأقل، أعطيتها الساندويتش وعدت لأجلس مكاني ولكن كانت المسافة كافية أن أتكلم معها فسألتها عن كتابها وأخبرتني أنه عن قصة الحب وأن الحب هو أن يكمل الطرفان بعضهما، فالشجر يحتاج إلى الماء رغم اختلافها ولكنها تحتاج إلى بعض، والأزهار تحتاج إلى الشمس بدونها ستموت بالرغم من بعد المسافات ولكنها تكمل بعضها، أعجبني كلامها كثيرًا، ثم ألقت نظرة على كتابي قليلًا لتجده كاتبًا غير معروف فسألتني عن كتابي فأخبرتها أنه عن سحرة المغرب وأنه صديق لي يحاول إثبات أن السحر لم يعد موجودًا وأنه انتهى منذ زمن، فلم تبدِ اهتمامًا، أعتقد أن السحر والأشياء الخيالية ليست من اهتماماتها. بعد قليل حزمت أمتعتها ورحلت، جلست قليلًا أتأمل النجوم ثم تذكرت أن لديَّ موعدًا مهمًا فحزمت أمتعتي أنا الآخر وذهبت مسرعًا.

مستلقٍ على هذا السرير وسط موسيقى هادئة وغرفة تغلبها الألوان الزاهية المزعجة، لماذا ليست ألوانًا داكنة؟ فلن تزيد حزننا فالحزن لا يتعلق بالألوان ولكن يتعلق بأنني سأكون مرتاحًا أكثر للغرفة وبجانبي الشخص الذي من المفترض أنه يستمع لي ويساعدني في مشاكلي الداخلية مقابل الكثير من المال، فمهمته

أن يستمع لي، أو التظاهر بأنه يستمع، أتذكر أنني أيقظته أكثر من ثلاث مرات في آخر محادثة لنا عندما بدأت أن أتكلم عن أسرار الحياة بالنسبة للإغريق، فهو يستمع لي يخبرني بأنه عليّ الهدوء والمحاولة لفعل شيء غير روتيني كوظيفة الأصدقاء ولكن بطريقة علمية أكثر على أي حال فأصدقائي تخلوا عن هذه الوظيفة مع مرور الزمن فأصبحت مليئًا بالمشكلات. نظر إليّ وهو يبتسم قائلًا:

- هل تحب الحياة؟

ضحكت كثيرًا فأنا لم أضحك منذ فترة، ولكن نبرة صوته وانكماش عينيه قليلًا وهو يسألني، فهو يعتقد بأنني وصلت إلى مرحلة الأفكار الانتحارية، دائمًا أتساءل إن كان الانتحار يحتاج للجرأة أم أن أكون جبانًا؟ ولكن دائمًا أصل إلى نفس الإجابة: فالانتحار هو الخوف من مواجهة الحياة فننهيها قبل أن تنتهي هي من تلقاء نفسها. توقفت عن الضحك لأجيب عن سؤاله الجاد:

- لا يجب أن أحب الحياة لأعيشها، ولن أنهيها لا تقلق، سأنتظر نهايتي المكتوبة فأنا متشوق لأعرفها، وأيضًا أنا حاولت كثيرًا وفشلت.

انتابني الكثير من حالات الاكتئاب في الماضي

وعقلي وصل إلى طريق النهاية عدة مرات، ولكن جسدي مقتنع بأن النهاية لن تحدث إلا بقراري أنا. أتذكر أبي كان دائمًا يقول لي إن الحياة تحاول ما في وسعها لتوقفنا عن تنفيذ أحلامنا فهي تهلكنا لننهي حياتنا فيقل عبئها قليلًا، وكأن الحياة هي ما يحيط بنا ونحن مجرد مصدر إزعاج لها، قال لي، «ولكن يجب أن نحارب الحياة ونثبت لها أننا لن نتوقف، وقتها فقط ستتوقف الحياة عن إحباطنا.» لم أقتنع بكلامه كثيرًا فحياته انتهت قبل أن يحقق ما يتمناه، ولكن أعلم بأنني كنت ساذجًا عندما حاولت أن أنهي حياتي. فنظرت إليه وبدأت أحكي له عن محاولاتي في الانتحار الفاشلة، أو لأكون صريحًا فأنا أعتبرها ناجحة؛ فقد تغيرت كثيرًا بعدها.

المحاولة الأولى

منذ زمن طويل أتذكر الماء الذي كنت غارقًا به وأنا مستلقٍ على أرض الحمام وشراييني المقطوعة وبجانبي موسيقى عالية محاولًا أن أستمتع بنهايتي على تلك الموسيقى، أجلس مبتسمًا متألمًا منتظرًا أن تنغلق عيناي للأبد، الغريب أنني استمعت لتلك الأغنية أكثر من مائة مرة ولكن تلك المرة، المائة وواحد، استمتعت بها كثيرًا، استمتعت بضجيج قارع الطبول

والنغمات العالية وصريخ المغني، أستمتع بالموسيقى وكأنني أستمع إلى هذه الأغنية لأول مرة، استمتعت بها كثيرًا لدرجة أنني تمنيت ألا أنتقل إلى الظلام الآن، حاولت جاهدًا أن أبقي مستيقظًا حتى تنتهي الأغنية فأنا لم أستمتع بأي شيء منذ فترة والآن وأنا أوشكت على خط النهاية، شعرت بأنني كان يجب أن أستمع إلى هذه الأغنية بوضوح من قبل، أتذكر أن مع انتقال المغني من النغمة العالية الصاخبة إلى النغمة الهادئة وقتها كنت انتقلت إلى الظلام بالفعل، ثم استيقظت في المستشفى فإن صديقي وجدني وأنقذني قبل فوات الأوان، فشعرت بأنني تألمت بلا جدوى.

المحاولة الثانية

أتذكر وقوفي على حافة الجبل والهواء البارد المار بين جفوني لتسقط بعض الدموع بصوره لا إرادية، تجمدت مفاصلي قليلًا والشمس على وشك الاستيقاظ من نومها، تمنيت بأن أنهي حياتي قبل أن تشرق الشمس، يقولون لا تمُت في النهار لأنه سيراك الجميع وتبدأ الصرخات وحالات الرعب وأنت روحك ما زالت تغادر جسدك فسترى نظرات الرعب على وجوههم. أتذكر البحيرة الواسعة أمامي بلونها الأزرق الغريب، بحيرة تتوسط الجبال، وأصوات الطيور التي تستيقظ

من النوم، وأصوات الغبار، وصرير الليل، وأصوات الأحجار المتساقطة من على قمة التلال، والهواء البارد الممتع.. مجددًا استمتعت بكل شيء حولي، الطيور والرمال والبحيرة، حتى الأحجار، استمتعت بمنظر الحيوانات وهي تلعب بعضها مع بعض، استمتعت بالشمس المستيقظة لتصعد بتكاسل بالكاد أرى عينيها المنغلقتين والقمر النائم ليسقط بعيدًا.. أخذت خطوات إلى الخلف، وكأنني أدركت أنني أتنازل عن الكثير وأن الحياة أفضل بكثير مما توقعت، فأخذت خطواتي إلى الخلف ببطء، فعقلي يتعارك مع جسدي قبل أن يدفعني الهواء إلى الخلف وهو يقول لي «عد أيها الأحمق!»

أقسم أنني شعرت بأن الهواء ابتسم لي وقال لي ذلك، بالكاد رأيت ملامح له، بكيت كثيرًا ثم عدت إلى منزلي لأرتمي على سريري لتبدأ نفس الأغنية على الراديو الذي استمعت لها في محاولتي الأولى، أخرجت رأسي من تحت الغطاء ببطء، ليداعب ضوء الشمس عيني لأبتسم ابتسامة خفيفة ثم خرجت من تحت الغطاء بالكامل بابتسامة كاملة لأستمتع بنفس الأغنية، ولكن هذه المرة استمعت إلى النغمة الهادئة بالكامل في كامل وعي وضوء الشمس رحل عن غرفتي والشمس تستعد للرحيل بابتسامة فهي قد أنهت مهمتها هنا،

وقتها استمتعت بكل تفاصيل أيامي، اقتنعت بأن الحياة لا تستحق أن ننهيها، فالخوف من مواجهتها هو سر قوتها.

أنهيت حديثي معه ورحلت في هدوء متجهًا إلى منزلي في هدوء لا أتكلم، ثم ارتميت على سريري فالحديث معه أرهقني، تذكرت الكثير من الذكريات المظلمة والأمر كان كافيًا أن يرهقني. تبقى النصف الآخر من المسحوق الذي أرسلته لي «ديجا» من قبل فخلطته وشربته لأرتاح قليلًا في أحد أحلامي.

(10)

لم تكن هذه هي النهاية.. نهاية شخص قتلت روحه عواصف الزمن، هذه ليست نهاية قصة حب أو عمل، وليست عن رحيل صديق أو غدر الزمن، بل هي عن نهاية أجيال.. فلم يمر أكثر من ثوانٍ لأعود إلى وعي لأجد نفسي راكعًا أمام جثة على أحد أرصفة المدينة والدماء تغطيني بالكامل لا أعلم ماذا حدث، فنهضت من مكاني ونظرت حولي ليس لديَّ أدنى فكرة من فعل ذلك أو كيف، ولكن نظرات الناس لي تدل على أن من فعل هذا هو أنا.

صرخت كثيرًا وسط همسات من الواقفين حولي عندما تأملت وجهها، وجدتها زوجتي بملامح مشوهة وسكين يخترق أمعاءها مرورًا بقلب طفلي الساكن بداخلها، وكأنني كنت غائبًا عن الوعي لفترة طويلة ولكنني عدت أخيرًا ولكن فوق جثة زوجتي! قطرات العرق تسقط من على جبيني، حاولت أن أهرب ولكن الشرطة قد وصلت أخيرًا فلم يعد لي مفر، فارتميت على الأرض ثم ارتمى عليَّ معظم رجال الشرطة لتكبيلي ثم وضعوني بداخل السيارة، أجلس بداخلها أشاهد ملامح المدينة، الأضواء والمارين حولي ورجال الشرطة الغاضبين، أشعر بأنفاسهم المليئة بالنيكوتين

دليلًا على حرقهم الكثير من السجائر بسبب التوتر، أتمنى أن لا أكون أنا سبب هذا التوتر وإلا ستكون نهايتي محروقًا مثل سجائرهم. وصلت إلى قسم الشرطة ورموني بغرفة، ثم نقلوني تحت حراسة مشددة إلى النيابة وألقوني بداخل غرفة، ثم دخل محققان وجلسا أمامي بنفس الرأس الصلعاء وحواجبهما السوداء الغليظة، شككت بأنهما توأم، يحرقان سجائرهما والجالس على اليمين ينظر إليّ بغضب والآخر ينظر إليّ بتوتر وحزن، أنا أعلم من هو المحقق «روبيرت»، في أواخر الأربعينيات وزوجته توفيت منذ فترة، فأنا أعلم الكثير من المعلومات.

ثم بدأت أتحدث قائلًا:

- للحب سبع مراحل وللقتل ثلاث، ولحب القتل أيضًا سبع مراحل: الهدف، الإصرار، العزيمة، التخطيط، القتل، والقانون السادس والسابع هما الجلوس لشرب كأس والاستمتاع بمنظر الضحية مع موسيقى عالية، لا تقلق لن تزعج الضحية.

بالكاد أنتهي من كلامي قبل أن يصفعني المحقق بعينين ممتلئتين كاد أن ينهار أمامي بكاءً مثل الأطفال، كنت سأحتضنه حتى يهدأ ولكن يدي المكبلتين منعتاني من ذلك. ثم نظر إليّ المحقق الآخر بغضب

فأعتقد بأنني أثرت الغضب بداخلهما بقوانيني السبعة، لا توجد قوانين يا حمقى، يوجد مرضى، فكلنا مرضى ولكن كلًّا منا مريض بطريقة مختلفة. ثم أكملت كلامي:

- أنا لديَّ هدف.. وهدفي ليس القتل بل إنقاذ البشرية، نعم.. إنقاذ البشرية. أعتقد أن الوقت قد حان لبطل جديد في المدينة، فإنقاذ البشرية ليس القضاء على المجرمين أو الحصول على السلام بين الدول، بل هو منع البشرية من الانتشار! لقد أنقذتكم، يجب أن تكونا ممتنين لي.

فصفعني المحقق الآخر غضبًا وليس ضعفًا، فابتسمت لهما وأنا أتذوق الدماء الساقطة من فمي وأنا أضحك وأقول:

- هذا مضحك، لقد تذوقت الكثير من الدماء، ولكن أول مره أتذوق دمائي. أيها المحقق، دم زوجتك كان لذيذًا بالمناسبة.

تلك كانت جملتي الأخيرة قبل أن أفقد الوعي بعد ضربة من مسدساتهما الاثنين في نفس الوقت على رأسي. في عالمي المظلم يوجد الكثير من القوانين وأهمها أنني لا أتبع القوانين، أنا بطل والأبطال قليلون، أتذكر منذ ثلاثين عامًا وأنا أرى أبي الجالس ببذلته الزرقاء قبل أن يغيرها إلى الحمراء جالسًا أمام القاضي

ليلقي عليه الحكم بالإعدام، أرى الابتسامة على وجه أبي فلم ينظر إليّ حتى ليودعني، لم يتلاقَ إلا أعيننا في نقطة مروره بجانبي مكبلًا وسط حراسة مشددة.. لن أنسى تلك اللحظة، فهو يتقبل مصيره بابتسامة وفخر.

يجلس أخي بجانبي فنهض وأخذني من يدي لنرحل بعيدًا، كانت هذه آخر مرة أرى أبي بها، قتل أمي ودفنها في حديقتنا الخلفية، المضحك أننا لم نعلم ذلك، لقد أخبرنا أنها سافرت بعيدًا، لا أعلم كيف اكتشفوا ذلك فأنا كنت صغيرًا حينها، عشت مع أخي في منزلنا ولكن ليس لوقت طويل فبعد فترة قتله بعض تجار المخدرات لأصبح وحيدًا، أحيانًا أتساءل لماذا أنجبوني؟ لماذا أتيت إلى هذه الحياة؟ لقد ماتوا جميعًا ليتركوا فتى في العاشرة من عمره وحيدًا.

تبنتني عائلة متوسطة الحال بعد فترة ومرت الأعوام، كانوا دائما يعاملوني وكأنني مريض عقلي حتى في عملي، كانوا يغضبونني دائمًا، بعد فترة رحلت عن عائلتي لأعيش وحيدًا في وسط الغابات، في منزل كبير مهجور لا يعيش به أحد بسبب الإشاعات بأنه منزل مسكون، ولكن لم أبالِ كثيرًا فنظرًا لحجمه لا أمانع أن أعيش بهذا المنزل حتى وإن كان مسكونًا.. لم

أكن وحيدًا في هذا المنزل على أي حال، فأحيانًا كنت أرى أبي وأخي وأستمع إلى أصواتهما ولكن ليس في أجسادهما ولكنهما معظم الوقت هنا، لقد عادا منذ أن كنت في الخامسة عشر من عمري ولكني لم أخبر أحدًا فكنا نتحدث سرًّا، اضطهدنا معظم الناس وطردوني من العمل نظرًا لتأخري في تسليم الأوراق والتكاسل، هذا ما ذُكر في تقرير فصلي.. الغريب أنني لم يكن من مهامي تسليم الأوراق ومهمتي كانت تصوير الأوراق ووضعها جانبًا ليستلمها الموظفون، ولكن مديرتي الحامل في شهرها الأول هي من أصرت على طردي، حينها أتى أبي وغضب كثيرًا وجعلني أكسر بعض الأجهزة قبل الرحيل ولكن أغضبني رد فعله لأكون صريحًا، فتكلمت معه ولكنه قال إنني طفل لا أفهم شيئًا، بعد فترة أحببت فتاة تعمل في سوبر ماركت قريب وكانت هذه البداية، عندما قررت أن—

قطع أحلامي برميل من المياه المثلجة الساقطة فوق رأسي، كان كفيلًا أن يجعلني أستيقظ مرتعبًا لأجدهما جالسين أمامي، فابتسمت لهما، يبدو أنهما أخذا بعض الوقت ليهدآ ولكن المحقق «روبيرت» لم يكن هنا فلم يتحمل أن يراني دون صفعي، رأيت المحقق الآخر الجديد عريض البنية، تمنيت ألا

يصفعني، ينظر إليّ بتفحص متعجبًا، فكيف هذا الشيء الضئيل الحجم فعل كل هذا؟ ثم سألني بطريقة مباشرة:

- هل تعترف بجرائمك؟

ابتسمت له قائلًا:

- جرائمي؟

ينظر إلى السقف بغضب، يشعل سيجارة وقال:

- لا داعي من التظاهر.

- هل يمكنني أن أعرف اسمك على الأقل؟

فأجاب الشخص الآخر:

- أنا المحقق «توم» وهذا المحقق «كريس» بديلًا للمحقق «روبيرت».

- حسنًا، تشرفت بمعرفتكم. ماذا تريدون؟

فأجاب كريس بهدوء:

- الاعتراف بجرائمك، وكلامك سابقًا يُعد إثباتًا.

- ماذا تقصد بكلامي؟ أنا لا أتذكر أنني تكلمت مع أحد أو أي شيء عن الجرائم، كل ما أتذكره هو أنني سرقت بعض الخبز.

فصاح «توم»:

- منذ ساعات قليلة أخبرتنا كل شيء عن قوانينك

في القتل وعن بطولتك!

فأجبت عليه بهدوء وطريقة مستفزة للأعصاب قليلًا:

- لا أتذكر.. قد يكون أبي هو من قال ذلك.

ينظران إلى بعضهما قبل أن يجيب عليَّ «كريس»:

- أبوك الذي توفي منذ ثلاثين عامًا؟!

- لا، هو موجود ولم يمت.

خبط «توم» المكتب وهو يقول:

- كفاك هراء عن أبيك وأمك، يوجد أكثر من إثبات لندينك ونهايتك اقتربت على أي حال.

ضحكت كثيرًا، نظرا إلى بعض بتعجب ليدركا أنهما لا يتعاملان مع شخص طبيعي، فسألني «توم»:

- ما المضحك؟

فأجبت بهدوء وابتسامة خفيفة:

- لأنكم أمسكتم بالشخص الخطأ، أنا لديَّ هدف.. وهدفي كان إنقاذ الأطفال.

فتكلما الاثنان في نفس الوقت:

- إنقاذهم من ماذا؟

- من كل شيء.. من الحياة.. من كل شيء حولنا، ومن الوحدة، وأيضًا من أن يعيشوا حياة لا يريدونها

ولم يختاروها.

فسألني «كريس»:

- وأنت من أعطاك الحق باتخاذ هذا القرار؟

فأجبت وأنا أهز رأسي بتعجب:

- أي قرار؟

فأجاب «توم»:

- القتل!

- لم أقل إني قتلت.. ولا أعلم ما الذي تتكلم عنه.

نجلس بداخل تلك الغرفة بإضاءتها الخافتة والزجاج الأسود على يميني، يقف بخلفه الكثير لا يمكنني رؤيتهم ولكن هذا ما رأيته في الأفلام، فأنا أستطيع سماع أنفاس المحقق «روبيرت» الغاضبة وطقطقة أصابعه ودموعه الساقطة، ثم عدت إلى هذا الحوار الممل لعقلي من جديد عندما سأل «توم» من جديد:

- إذًا من الذي كان يقتل.. أبوك؟

أضحكني سؤاله الساذج:

- أبي؟ أبي؟

تبدو نظرات المحقق «كريس» أنه فقد الأمل في التكلم معي فنهضا وخرجا من الباب، أراهما يقفان مع شخص عجوز يبدو أنه أكثر أهمية منهما، لم يغلقوا

الباب بالكامل، أستطيع أن أرى نظراته لي، ابتسم ابتسامة خفيفة لي ورحل واتبعه الكثير من خلف الزجاج الأسود، كما توقعت. ولكن توقف المحقق «روبيرت» قليلًا بنفس الابتسامة الخفيفة لي ثم رحل. أنا أعلم ماذا سيفعلون، سيأمرون بإعدامي حتى لا يبذلوا الكثير من المجهود معي نظرًا لوجود الأدلة وأنهم وجدوني بجانب جثة، فهم لا يحتاجون إلى اعترافي، ولكن كنت أشعر بالملل لأعترف لهم، لهذا اكتفيت بأن أتلاعب بعقولهم قليلًا، فأنا أعلم النهاية على أي حال، وهذا هو السبب الذي جعل «روبيرت» يبتسم وكأنه سيحصل على انتقامه أخيرًا. لم يدخل عليّ أحد لمدة ثلاث ساعات ثم عاد «توم» و«روبيرت» مبتسمين وفخورين بأنفسهما كما لو أنهما انتصرا في أرض معركة لا يوجد حرب بها ولكن ما زالا يعتقدان أنهما انتصرا، فتكلم «روبيرت» بابتسامة:

- لا نريد اعترافك، ستنتهي حياتك قريبًا على أي حال، وسأشاهد إعدامك بنفسي.

- حقًا؟ وما الجديد، فأنا أعلم كل ذلك! ولكن هل ستنتهي حياتي قبل أن تعلم ماذا كانت زوجتك تريد إخبارك؟

جملة قاسية لن أكذب.. لقد شعرت بالغضب وأنا

أقولها، فاختفت الابتسامة بالكامل من على وجهه ثم وضع كفه المرتعش على فمه ويقترب مني بغضب، حاول «توم» إمساكه ولكنه فشل فبدأ «روبيرت» يصفعني بمسدسه مجددًا بقوة ليرسلني إلى عالمي المظلم من جديد.

أتذكر عندما جلست وحيدًا في منزلي كدت أصاب بالعمى بسبب كثرة بكائي، فالعالم الخارجي كان مخيفًا بالنسبة لي، يعاملني الناس وكأنني غول يمشي على الطريق فابتعد الجميع عني وأصبحت وحيدًا في عالم ممتلئ بالناس، فقدت عملي ولم يعد لي صديق، الغضب الذي أصاب أبي وأخي كان كافيًا لأن أكسر نصف المنزل.

بعد فترة قررت أن أبني مزرعة كلاب، فلن يجب عليَّ التعامل مع أحد سوى أن أبيع بعض الكلاب للمحلات أو الأشخاص، فبدأت أبني الكثير من الأقفاص الحديدية بأسفل الأرض بالجزء الخلفي من المنزل، اشتريت الكثير من الكلاب وبدأت في عملي، بعت الكثير من الكلاب وبدأت أحصل على الكثير من الأموال ولكن لم يطل الأمر كثيرًا فاجتمع بعض التجار وأحرقوا منزلي.. أحرقوا كل شيء حتى كلابي وتشوه نصف وجهي. جلست بالمنزل لمدة أحاول تصليح

المنزل، وفي يوم قررت الخروج لشراء بعض المخزونات، وكانت هذه هي البداية.. رأيت من تسبب في بداية هلاكي، رأيت مديرتي واقفة ببطنها المنتفخة والمفترض أنها ستلد قريبًا على ما اعتقد، أراها واقفة بداخل ممر في «السوبر ماركت» تضع الكثير من الأكل داخل العربة لتشبع بطنها الممتلئة، أريد أن أصرخ وأقول لها إنني لم أفعل شيئًا خاطئًا فأنا كنت موظفًا جيدًا ولم أتأخر أبدًا عن عملي ولم أفتعل أي مشاكل، ولكنه ليس قراري أن يكرهني الجميع.

عندما رأتني لم تتعرف عليّ في البداية ولكن عندما عرفت أوقعت كل ما بين يديها على الأرض وأنا مبتسم لها بنصف وجهي المحترق، أستطيع سماع دقات قلبها العالية ثم صرخت وجرت بعيدًا إلى الداخل لتحتمي في الناس فذهبت مسرعًا إلى الخارج واقتحمت سيارتها وانتظرتها بداخلها، بعد دقائق دخلت سيارتها وجلست بداخلها تبكي، لا أعلم إن كانت دموع خوف أم ندم على ما فعلته بي، بدأت تقود السيارة وبعد لحظات كتمتُ فمها حتى أصيبت بالإغماء، أخذت سيارتها واتجهت إلى منزلي ثم وضعتها بداخل أحد الأقفاص، جلبت كرسيًا وجلست أمام التلفاز، وعندما سمعت صوت صراخها اتجهت إليها.

فصرخت عندما رأتني قائلة:

- أين أنا؟ وماذا تريد مني؟

- لا أعلم.. لا أعلم لماذا أحضرتك إلى هنا.

تبكي بحرقة وهي تقول:

- أرجوك اتركني أرحل، فأنا حامل!

فأجبتها بهدوء:

- أعلم.

فمسحت دموعها وهي تقول بابتسامة:

- هل كل ذلك بسبب العمل؟ اتركني أرحل وسأصدر قرار رجوعك للعمل غدًا.

فأغضبني كلامها فصحت في وجهها:

- عمل؟ بوجهي المشوه هذا؟ أنتِ من طردني عندما كنت سليمًا.

- أرجوك اتركني أرحل، زوجي في الشرطة وسيبحث عني إذا شعر باختفائي!

فابتسمت لها وأنا أقول:

- لا أعتقد أنك سترحلين ولن يجدك زوجك على أي حال.

فعادت للبكاء من جديد وهي تقول:

- أرجوك أنا حامل!

- لا أعتقد بأنك أو الطفل الذي بداخل أمعائك ستنجوان.

فأجابت في تعجب:

- ماذا تقصد!

فتمطعت قليلًا وأنا أجيب:

- ما الهدف من أن تنجبي طفلًا لينمو ويصبح مثلك في النهاية؟ أو مثلي؟ الحياة ليست جميلة ويجب أن أنقذ ابنك من هذه الحياة القاسية.

- أنت مجنون!

غضبت كثيرًا عندما قالت هذا.

- لا لست مجنونًا! لا تقولي مجنونًا، فالمجنون لا يعلم ماذا يفعل أو ماذا يريد، ولكن أنا لديّ هدف وهذا رأي أبي وأخي أيضًا، لا أريد للطفل أن يواجه نفس مصيري.

رحلت من أمام قفصها وأنا هادئ ومستمتع بصوت صراخها وبكائها، لقد أتممت أول أربعة قوانين: الهدف، الإصرار، العزيمة، التخطيط.

أعلم أنني لم أخطط شيئًا فكل شيء جاء بالصدفة، ولكن ما زالت القوانين تتحقق. أحضرت بذلة كنت ارتديتها لتدريب كلابي — المقتولة، وما زالت بعض الجثث بالأقفاص، أعتقد توجد جثتان بجانبها ولكنها لم

تلاحظهما بعد — ارتديت بذلتي وأخذت بعض المعدات وأحضرت المذياع الخاص بي ووضعته بخارج قفصها، ازدادت صرخاتها عندما رأتني وازدادت أكثر عندما رأت عظامًا بجانبها واعتقدت أنها لشخص ما وليس لكلاب، فتحت الباب ووقفت أمامها أضحك وهي تحاول تخبئة جسدها، لقد انقطعت معظم ملابسها وأنا أنقلها إلى هنا، فنظرت إليها وأخبرتها بأن هذا ليس هدفي وأن موتها سيكون سريعًا، الموسيقى العالية بالخارج، فهذا القانون السابع، أرقص على النغمات وهي تشاهدني ولم تعد تبكي فقد جفت عيانها فأصبحت تبكي جفافًا متألمة. عندما انتهت الأغنية اقتربت منها وانهلت عليها بالضرب، شعرت بالمتعة، خرجت عندما انتهيت وجلست على الكرسي أمام جثتها وأنا أحمل كأسًا من الكحول وموسيقى ملائمة، لقد أتممت كل القوانين الآن فشعرت بأنني كان يجب أن أفعل هذا من زمن، كانت هذه البداية.. إنقاذ الأطفال من هذه الحياة. أصبحت أقفاصي ممتلئة مع الوقت فلم أعد أعلم عددهم ولكنهم كانوا كثيرين.

تزوجت بعد فترة ولكنها لم تعلم شيئًا في البداية، كنت أعمل في الخفاء، ولكن عندما علمت وحاولت الهرب تملكني الغضب، غضب أبي كثيرًا وأخي،

وارتعبتُ خوفًا حينها من أن تخبر الشرطة لينهوا بطولتي، غضبت كثيرًا مما جعلني أفقد إدراكي بالواقع.

لم يمر أكثر من دقائق لأدرك بأنني راكع أمام جثة على أحد أرصفة المدينة والدماء تغطيني بالكامل، لا أعلم كيف حدث هذا، نهضت من مكاني وقطرات العرق تسقط من على جبيني، أنظر حولي ولكن نظرات الناس لي تدل على أن من فعل هذا هو أنا، صرخت كثيرًا وسط همسات من الواقفين حولي وعندما تأملت وجهها وجدتها زوجتي.

أعتقد أن نهايتي حانت، فالأبطال لا يعيشون للأبد، ولا الأشرار أيضًا، على أي حال إن نهايتي اقتربت كثيرًا الآن ولن يكون عليّ انتظار حكم القاضي، فأنا ابتلعت برشامة قبل أن يقبضوا عليّ بلحظات ويبدأ مفعولها بعد يومين من ابتلاعها ومفعولها يبدأ الآن، كنت أحتفظ بها دائمًا خوفًا من تكرار خطأ أبي، وهو جعلهم يفتخرون بأنهم قتلوني. تعمل الحبيبة على ازدياد ضخ الدم في شراييني حتى تنفجر، يا للمتعة.. موت سريع بدون ألم! يحاولون إنقاذي لقتلي بأيديهم، المحقق «روبيرت» يفعل ما في وسعه ليبقيني حيًا فموتي هذا لن يكون كافيًا ليشعر بأنه انتقم مني على ما فعلته لزوجته، من الصدف أن زوجته هي أيضًا مديرتي

السابقة في العمل وهي كانت أول الضحايا، يبكي ليس لأنني أموت ولكن لأنه لم ينتقم، يشعر بأنه خذل نفسه وزوجته.. مسكين المحقق«روبيرت»، لم ينجح في إنقاذي ليرى إعدامي.

(11)

اليوم استيقظت بجسد نشيط على غير المعتاد، ألعب مع قطي الصغير وحضرت وجبة الإفطار الخاصة بي مع كوب القهوة والجلوس بالشرفة، أتذكر عندما كنت صغيرًا اعتدت أن أمسك بلوح الرسم الخاص بي وأبدأ في رسم خطوط متداخلة باستخدام اللون الأسود فقط، وعندما لاحظ أبي ذلك أخبرني بأنه يجب عليَّ التوقف عن استخدام لون واحد فقط وأن أستخدم أكثر من لون، فأخبرته بأنني سأستخدم اللون الأبيض فأخبرني بأنني لا يجب أن أعتمد على لونين فقط، مثل الحياة ليست أبيض وأسود فقط ويجب أن أستخدم ألوانًا كثيرة حتى لا ينتهي لون منها فتكون مضطرًا أن تكمل لوحتك بلون واحد فقط، فيجب أن تعطي لنفسك خيارات أكثر، استمعت إليه وبدأت فعلًا في استخدام ألوان كثيرة وكانت لوحاتي سيئة جدًّا على أي حال ولكن لم أتوقف عن استخدام جميع الألوان، قد يكون البعض منها انتهى في يوم ما أو لفترة ما قد تكون شهرًا أو سنة أو أكثر، فجسدي الثقيل لم يهتم أن يبحث عن الألوان المنتهية من جديد، ومع الوقت انتهت جميعها لأصل إلى اللون الأسود من جديد ثم أعود إلى تلك الدورة التي لا

تنتهي من البحث عن ألوان السعادة بداخل من حولي.. التفاصيل، وابتسامة من نحب، قد يكون ضوء الشمس الساقط على أعيننا أو ضوء القمر وهدوء الليل، ومن الممكن أن يكون كوب قهوة مع أغنية مفضلة.

اليوم أستمتع بكل شيء، فمذاق الطعام مختلف وشهي لأول مرة منذ زمن، وكوب القهوة ورائحتها التي اقتحمت أنفي وصولًا إلى قلبي، والجلوس بتلك الشرفة والاستمتاع بكل ما هو مار، وغناء العصافير مع رقص الشجر والأطفال الذي يلعبون في الشارع.. تعجبت قليلًا وكأن الحياة أصبحت أكثر وضوحًا لي، قد أكون انتقلت بالزمن أو أخيرًا وجدت بعض الألوان التي فقدتها مع مرور الزمن، اللون الأخضر للأشجار، وألوان العصافير الزاهية، واللون البني لرسم ملامح الأطفال، واللون الأصفر لأرى الشمس بوضوح، واللون الأحمر لرسم سيارتي المركونة بأسفل منزلي منذ زمن، واللون الأبيض الذي فقدته وأكثر الألوان التي اشتقت إليها لرسم زي البواب.. أصبح كل شيء واضحًا بالنسبة لي.. ابتسمت لأول مرة منذ زمن، ابتسامة لا أعلم سببها سوى أنني أشعر بالسعادة. دخلت غرفتي وارتديت ملابسي لأعود إلى المقهى.

أمشي بالشارع وأستمتع بضجيج السيارات، وصوت

صياح فتاة في وجه سائق التاكسي لأنه يطلب أموالًا زيادة فتغضب الفتاة وتغلق باب سيارته بقوه فينكسر الزجاج فتبدأ الفتاة بالركض وهي تضحك، وعامل البنزينة بفانلته البيضاء وخرطوم المياه ليغسل سيارة فارهة لرجل أعمال، والناس الواقفين بمحطة الأوتوبيس، وذلك الفتى في سيارته وأغانيه العالية، وبائع الأنابيب الذي ما زال يحاول أن يبيع في حي جميع منازله تستخدم الغاز ولكنه ما زال يحاول.. وصلت إلى المقهى الذي لم أزره من فترة ليرحب بي عم «يوسف» ولكن بملامح حزينة والناحية الأخرى مقهى عم «إسماعيل» مغلق، ينظر عم «يوسف» كل فترة إلى الناحية الأخرى بعينين ممتلئتين وكأنهما على وشك الانفجار، اقتربت منه وسألته لماذا مقهى عم «إسماعيل» مغلق ليخبرني بنبرة حزينة بأنه توفي منذ أسبوع، ثم عاد إلى النظر أمامه مجددًا وكأنه ينتظر أن يخرج عم «إسماعيل» من داخل ذلك المقهى ليتبادلا نظرات التحدي من جديد، وكأن عم «يوسف» فقد جزءًا كبيرًا من نفسه في ذلك اليوم، فتلك النظرات لم تكن إلا تشجيعًا متبادلًا بينهما ليحاولا النجاح أكثر ولا يتوقفا.

رحلت عن المقهى واتجهت إلى محطة الأوتوبيس

لأتجه إلى الحديقة لكي أكمل حديثي معها، ولكن لسبب ما قرر الأوتوبيس ألا يقف في المحطة، فهو يأتي بسرعة فائقة ولا ينوي الوقوف أمامي، بدأت موسيقى وهمية في الأجواء فاتسعت عيناي وبدأ قلبي ينبض بقوة مستعدًّا أن يقترب، وبالفعل عندما اقترب بدأت بالركض خلفه ثم قفزت بداخله لتصاب ركبتي، ولكن لم أهتم فوقفت بابتسامة النصر، كان الركاب ينظرون إليّ بنظرات قرف وغضب حتى قال أحدهم ساخرًا:

- ستقتل نفسك من أجل الأوتوبيس؟ كان يمكنك أن تنتظر القادم أيها الأحمق!

وبعد ثوانٍ علمت أنه الأوتوبيس الخاطئ فنزلت وأنا أشعر بالعار والإحراج، وانتظرت الأوتوبيس التالي بكرامتي هذه المرة. دخلت الحديقة مع موسيقى درامية ثم اقتطفت بعض الأزهار لها، أراها جالسة تقرأ كتابًا جديدًا وتستمع لموسيقى قديمة تعود إلى الستينيات، بفستان أحمر جديد، وما زالت الشجرة ترقص سرورًا، جلست بجانبها بابتسامة عريضة على وجهي قائلًا:

- يوم جميل، ألا تعتقدين؟

فنظرت لي لتلاحظ ابتسامتي العريضة فابتسمت

قائلة:

- هل يمكنك أنت تقول صباح الخير على الأقل؟

فأجبتها مسرعًا:

- صباح الخير.. يوم جميل؟

- يبدو أنك سعيد، والجو جميل فعلًا.

فنظرت إلى السماء قليلًا ثم قلت لها:

- الغريب أنني نشيط عكس العادة، أرى كل شيء بصورة مختلفة.

اللون الأحمر الذي رسمت به سيارتي صباحًا يجعلني أرى فستانها بوضوح الآن وانعكاس لونه على ملامحها، واللون الأخضر الذي رسمت به الأشجار يجعلني أرى عينيها بوضوح الآن بكل تفاصيلها فأصبحت أجمل بكثير، وابتسامتها، وغضبها الداخلي، حتى الموسيقى أصبحت أكثر جمالًا.. لسبب ما قررت أن أبدأ أتكلم بعشوائية قائلًا:

- أحيانًا أشعر بأن العالم ليس حقيقيًا.

نظرت إليّ بتعجب قبل أن تغلق كتابها:

- كيف؟

- هل نحن أحياء؟

- ألا تعتقد ذلك؟

- أعلم أننا أحياء، ولكن الحياة مليئة بالأركان المظلمة التي لا نعلم عنها شيئًا.

- لا أعلم أي شيء عن الأركان المظلمة ولا أعتقد أنها موجودة، هل أنت دائمًا بهذا الفراغ؟ أليس لديك عمل؟

- أنا كاتب.

ثم أجابت بسخرية:

- وهل تكتب عن الأركان المظلمة وأفكارك الغريبة دائمًا؟

فضحكت قائلًا:

- لم أكتب منذ فترة على أي حال.

فأجابت باهتمام:

- لماذا؟

- لا أعرف ولم أجد جوابًا لهذا السؤال، لقد أحضرت شيئًا لكِ.

- ماذا أحضرت لي؟

- كتبًا عن السحر، اقرئيها وستتأكدين أن السحر ما زال موجودًا وحقيقيًا.

- السحر انتهى منذ زمن.

فأجبتها بملامح جدية:

- لم ينتهِ صدقيني، ما زالوا موجودين ولكن لن

يُظهروا أنفسهم لأنه توجد منظمات سرية تريد القضاء عليهم.

ابتسمت قليلًا متعجبة كلامي، وكأنني عدت في نظرها إلى ذلك الإنسان المجنون.

- هل يمكنك إثبات ذلك؟

فكرت كثيرًا أن أخبرها ولكنني كنت متأكدًا أنها لن تصدقني وأنها يجب أن ترى بعينيها، فقلت لها:

- أعدك بأنني سأثبت لكِ ذلك، وستتأكدين أنني لست مجنونًا، ولكن إذا أثبت لكِ ذلك فهل تنفذين أي طلب لي؟

فأجابت بتعجب:

- مثل ماذا؟

- سأقرر وقتها.

- أنا أعلم أنك لن تثبت لي ذلك ولكن اتفقنا.

- سأعود المرة القادمة بإثبات.

فابتسمت لي وصافحتني لتأكيد الاتفاق.

أنهينا حديثنا بالصمت، فكرت كثيرًا كيف أثبت لها ولسبب ما فكرت في أن أبحث عن «ديجا» لأطلب منها هذه الخدمة، ولكن بالتأكيد سترفض، نهضت من مكاني بعد أن ودعت «مريم» ووضعت السماعات في أذني

وموسيقى هادئة تساعدني في التفكير، لم أقابل «ديجا» منذ زمن بل اكتفت بإرسال الرسائل والطيور.

قررت أن أذهب إلى ذلك المحل حيث التقيت بها أول مرة، فبحثت في كل أركانه ولكنني لم أجدها، ثم فكرت أن أتجه إلى الحارة. تلك اللحظات الأولى عندما دخلت إلى الحارة كان كل شيء طبيعيًّا لفترة صغيرة قبل أن يتوقفوا جميعًا بصورة غريبة، وبدأت رؤوسهم تهتز بقوة وبدأت أطرافهم ترتعش بقوة ويسيل اللعاب من أفواههم، وسقط البعض والقليل منهم بدأ يصرخ والبعض بدأ يزحف على الأرض، لا أعلم ماذا يحدث! ثم نظروا إليّ جميعًا برؤوسهم المائلة وأعينهم المرتعشة وكأنهم يحذرونني من التقدم أكثر، ولكن هذا حدث من قبل فاعتقدت أنها خدعة لتخويفي، ولكن بعد لحظات بدأت ترتعش أطرافي قليلًا وعقلي يؤلمني، شعرت أنه يزداد حجمًا وكأنه على وشك الانفجار فركعت على ركبتي قليلًا أصرخ، ثم زال الألم قليلًا فتقدمت أكثر إلى المنزل، ومع اقتراب دخولي من المنزل أمسكت فتاة بقدمي وأنا مبتسم «إنها نفس الخدعة فقد فعلتها العجوز من قبل، اتركيني.»

بدأت الدماء تسيل من فمها وانقلبت عيناها وتحول وجهها تدريجيًّا لوجه المرأة العجوز التي رأيتها من

قبل، كما لو كانت تحت تأثير تعويذة لتصبح شابة ولكن التعويذة تزول، اختفت ابتسامتي قليلًا وأصبح القلق يتدفق بداخلي، دخلت من ذلك الباب ولكن هذه المرة لم يعودوا إلى طبيعتهم بالخارج بل أصبحوا أسوأ حالًا مما أثار القلق بداخلي أكثر، أصعد السلالم ببطء والظلام في كل مكان، كدت أسقط من على درجات السلم المكسورة، والغبار يسقط من السقف، شككت بأن البيت على وشك الانهيار، والرسومات بدأت تختفي تدريجيًا من على جدران المنزل، ولا يوجد أحد حتى سمعت صوت صريخ من الدور الأعلى.. الدور الأكثر ظلامًا. بدأت الصعود بخطوات بطيئة حتى وصلت إلى باب منغلق ولكن ليس بالكامل، لأرى «ديجا» تقف بداخل دائرة من الضوء ومساعدها بجانبها ويقف حول الدائرة خمسة أشخاص يحملون سيوفًا غريبة، ومنهم رجل بجسد مليء بالوشوم الغريبة وقصة شعر عجيبة، فهو قائدهم على ما أعتقد، ويضحك بصوت عالٍ، يحاولون أن يدخلوا الدائرة ولكنهم يفشلون.. فأدركت ماذا يحدث بالحارة بالأسفل، وكأن كل التعويذات تنتهي لأن من ألقى عليهم التعويذات في خطر. ثم جلس الرجل صاحب الوشوم على الأرض ينظف سيفه وهو يبتسم وقال باستهزاء:

- وماذا بعد؟ ليس لدينا شيء لنفعله، يمكننا الانتظار للأبد ولن تحافظ على جدارك لمدة طويلة أيها العجوز على أي حال.

«ديجا» بداخل الدائرة تتألم ويوجد جرح حديث على وجهها، ثم أكمل الشخص كلامه:

- هل اعتقدت أنك ستهرب للأبد؟

لا أدري لماذا يتكلمون معها بصيغة المذكر! فنظرت «ديجا» له وهي تبتسم قائلة:

- وكم من الوقت استغرقتم لتجدوني؟

ثم ضحك الرجل وهو يقول:

- نعلم مكانك منذ فترة عندما بدأت في استخدام البوابات من جديد، ولكننا كنا في حاجة إلى طريقة مؤقتة لنأتي إلى زمنك، وحان الوقت لتكمل المهمة.

فنظرت «ديجا» إليه في صمت قليلًا:

- لن أساعدكم ولن تصلوا إلى هدفكم.

اقترب الرجل من الدائرة كثيرًا وهمس بشيء ما لم أسمعه ثم عاد وجلس مكانه، مرت دقائق في صمت وما زال الرجل جالسًا يتأمل ملامح الغرفة، جلست «ديجا» وبدأت تتلو تلاوات غريبة وبعد لحظات بدأ المنزل يهتز بقوة، نهض الرجل من مكانه واستند إلى الحائط و«ديجا» بدأت تهتز بقوة والمنزل يهتز بقوة

أكبر.. بدأت بوابة غريبة تنفتح بداخل الغرفة، بوابة صغيرة بداخل الهواء وأرى الناحية الأخرى ثلجًا، أرى عالمًا آخر من الناحية الأخرى من البوابة، يزداد حجم البوابة بالتدريج ثم فتحت «ديجا» عينيها ورأتني مختبئًا خلف الباب، حدقت إليّ لثوانٍ وأشارت إليّ بالهروب فبدأت قطرات العرق تسقط من على جبيني، حاولت أن أعود إلى الخلف قليلًا قبل أن يروني فارتطمت بزجاجة لتتدحرج قليلًا وتسقط فوق لوح خشب على طرفه الآخر حجر فيطير ويصطدم بمؤخرة رأس الرجل، فوقفت مندهشًا للمنظر فلا أعلم كيف حدث هذا، إذا كانت توجد جائزة لمن هم أكثر تعاسة وأقل حظًا فسأفوز بها بعد هذا المشهد! سمعت صوت خطواته وغضبه وهو قادم نحوي وأنا أصرخ «لا أعلم كيف حدث هذا!» أركض بأنحاء المنزل وأنا ما زلت أصرخ بنفس الجملة حتى أمسكوا بي، ألقوني بداخل الغرفة، و«ديجا» ما زالت بداخل الدائرة ولكن الشعاع أصبح أضعف و«ديجا» أصبحت منهكة أكثر، عندما اقتربت منها لاحظت جروحًا أخرى منتشرة في جسدها والدماء تحيط بها، انغلقت البوابة وجلست «ديجا» على الأرض تنظر إليّ في خوف ولوم لأنني جئت في هذا الوقت، مرت ثوانٍ ثم اختفت الدائرة بالكامل فاقترب منها الرجل وهو يبتسم وألقاها على الأرض

وأمسك بها اثنان من مساعديه، وأمسك المساعد الثالث بمساعد «ديجا»، والرابع أمسك بي ثم كبلني أرضًا. أرى «ديجا» مرهقة للغاية لا تستطيع التحرك ولكن ما زال يمسك بها شخصان دليلًا على الخوف منها، نظرت إليّ «ديجا» وهي تحاول أن تلتقط أنفاسها ثم نظرت إلى الرجل وقالت له:

- اتركه، إنه شاب مسكين لا يعلم عن السحر شيئًا.

فنظر إليّ ذلك الرجل بوشومه المخيفة:

- مسكين؟ مسكين إزاي؟

فنظرت إليه «ديجا» وهي تقول بإرهاق:

- هو لا يعلم شيئًا.

ابتسم الرجل لي قليلًا ثم قال:

- أنت «خالد» أليس كذلك؟ مَن انفتحت له بوابات «راهوت»؟

نظرت إليه متعجبًا فأنا لا أفهم ماذا يقول فسألته:

- بوابات «راهوت»؟

فنظر الرجل إلى «ديجا» وهو يضحك:

- ألم تخبره من هو «راهوت» يا «راهوت»؟

ثم نظر إليّ الرجل وأكمل كلامه:

- هذا هو «راهوت» أيها الساذج.

فنظرت إلى «ديجا» متعجبًا فلا أعلم إن كان «راهوت» اسمًا أم وصفًا، ثم نظرت إلى الرجل قائلًا:

- أنا لا أعلم ماذا تعني بـ«راهوت» ولكن هذه «ديجا».

ضحك الرجل ثم نهض من مكانه وهو ينظر إلى «ديجا»:

- استغليت المسكين واستخدمته ليمر من البوابات وهو لا يعلم أصلًا من أنت وماذا تفعل؟

فنظرت «ديجا» إليّ بحزن ثم أخرج الرجل السكين من جيبه الخلفي وجلس مكاني، قلبي كاد أن ينفجر في مكانه، ثم قال ساخرًا:

- للأسف أيها الأحمق، هذا هو «راهوت» وليس «ديجا» ولقد استغلك لتكون جزءًا من تجاربه.

قطرات العرق تسقط كالأمطار وحلقي أصبح جافًا كالصحراء ولكن لم يمنعني هذا عن السؤال:

- هذا يعني أن كل ما رأيته لم يكن حقيقيًا؟

نظرت إليّ «ديجا» — أو «راهوت»، لا أعلم من هذا — قائلًا:

- كل شيء كان حقيقيًا ولكن لم ينبغِ أن ترى كل ذلك.. أنا آسف.

فنظرت إلى الرجل قائلًا:

- لا أعلم من هذا ولكنه لم يستغلني وقد حذرني كثيرًا وأنا فعلت كل شيء بإرادتي!

قبَّل الرجل سكينه وقربه من حلقي، أشعر بطرفه البارد الحاد، أشعر بالألم قبل أن يضعه بالكامل حتى، فأغمضت عيني، بدأت «ديجا» تصرخ بصوت عالٍ وعندما فتحت عيني رأيت ذلك الشعاع المنبعث من داخلها وصرخاتها العالية وتجاعيد وجهها التي تزداد بسرعة، ويزداد الشعاع قوة فارتمى من كانا يمسكانها بعيدًا فنهضا وحاولا الاقتراب منها ولكن الشعاع كان قويًا، بدآ يضربانها بالسكاكين وهما يتألمان ولكنها ما زالت تصرخ، فارتميا بعيدًا مجددًا، ثم أغلقت أنا عيني في ألم وبدأنا نصرخ جميعًا، يزداد الشعاع ولا يتوقف وما زالت التجاعيد تزداد، وفجأة بدأت «ديجا» تتحول إلى أشكال مختلفة وكائنات مختلفة حتى استقرت على شكل واحد، كائن عجوز جدًا بملامح غريبة لم أرها من قبل ووشم غريب عبارة عن دوائر متداخلة على كتفه اليمنى، وأنفه العجوز الكبير وعيناه بألوانهما المتغيرة، وجسده الهزيل، ثم بدأ يهتز جسده بقوة وبعد لحظة هدأ كل شيء. يتنفس هذا الكائن بقوة، بدأ الرجل ينهض من مكانه هو ومساعدوه يتألمون وبعض

علامات الحرق على وجوههم وأجسادهم وملابسهم فبدؤوا يقتربون من «راهوت» من جديد، فنظر إليّ «راهوت» بابتسامة ثم بدأ وشمه يضيء ببطء، دائرة بعد دائرة حتى أصبح الوشم مضاء بالكامل، بدأ الشعاع يخرج من جديد فضربه الرجل مسرعًا بسيفه لتطير رأس «راهوت» من أول ضربة ثم انفجر الشعاع بالكامل، أغمضت عيني من قوته.. وبعد لحظات هدأ كل شيء، وعندما فتحت عيني وجدت نفسي بذلك المكان المظلم وأسمع صوته بصورة غير واضحة، ثم تحول كل شيء إلى ظلام من جديد، وبعد لحظات وجدت نفسي مرتميًا على سريري، لا أعلم كيف وصلت هنا، أتألم بشدة ويحترق جسدي بقوة فألقيت رأسي أسفل المياه المثلجة ولكنه لم يساعد في تهدئتي، ما زال جسدي يحترق بشدة، والجدران تنصهر وكل شيء يبدو مختلفًا، تتغير الأشياء بصورة عشوائية سريعة، شكل الجدران، شكل السرير يتغير شكله، يبدو قديمًا ثم يتغير ليبدو أقدم ثم يعود إلى سريري الطبيعي، وقطي تتغير ملامحه وألوانه، لوهلة بدا الأمر وكأن الزمن لم يعد مستقرًا.. ما زلت أتألم بشدة فألقيت بجسدي على السرير أصرخ ثم فقدت الوعي من الألم، لأغوص في عالم جديد من دون مساعدة «راهوت» هذه المرة.

(12)

لقد أصابني الجنون، وجدت نفسي مستلقيًا بغرفة مظلمة لأكثر من ثلاث ساعات، تتدفق قطرات الدم الساقطة من تلك الأنبوبة العريضة المتصلة بعروقي المتصلبة ومخي امتد حجمه أضعاف جمجمتي لأشعر بطقطقة عظامها، الغريب أنني بجسدي ولست في جسد أحد آخر، لا أعلم ماذا يحدث فأنا محاصر بتلك الغرفة ولا يوجد حولي سوى جدران متشققة وثعابين تحاول الخروج من تلك الشقوق فهي تشتهي لدمائي، ولكنها لن تحصل سوى على تلك الأنبوبة فعروقي فارغة.

أحيانًا أتأمل تلك الأرواح الهائمة من حولنا والأشباح الجالسين بغرفتنا ليلًا ومن يحدقون إلى أرواحنا ليلًا، فتعمقت أكثر في الفكر حتى رحلت عن ذلك العالم لأدخل إلى أكثر الأماكن رعبًا وظلامًا، إلى حلم آخر بعروقي التي تنبض خوفًا.. كل شيء كان هادئًا لفترة وفجأة تحول كل شيء حولي من مجرد صمت هادئ إلى ضوضاء شديدة، ثم لفت نظري نفق مظلم لا أسمع به أي صوت، أمشي بداخله بخطوات سريعة وبأنفاس مقطوعة قبل أن أصطدم بجدار في منتصف الطريق لأسقط على الأرض لثوانٍ، فنهضت وأنا أتألم ثم سمعت

صراخًا في آخر النفق، تمشيت بخطوات حذرة لأرى مصدر الصوت.

أرى كائنات شيطانية، كائنات بأشكال غريبة مكبلة بالجدران ومن فوقها إناءً مملوءًا بحمم بركانية — على ما أعتقد — وتسقط فوقها عندما تتحرك، وعندما نظرت فوقي رأيت البعض منها تحاول الصعود إلى الأعلى ولكن سرعان ما تسقط على الأرض متألمة، أعتقد أنها لم يتم تكبيلها بعد فما زالت تحاول الهروب قبل أن يكبلها أحد، ولكن من يكبلها؟ أنظر حولي في خوف لأرى أرواحًا تركض من حولي، أنا الآن في سابع أرض، وجدت الشياطين التي تم نفيها نظرًا لعدم جودة عملها كـ«شياطين» فهي تحاول الهرب ولكنها تفشل، أتمشى بداخل أرضها الكريهة فأرى شياطين تعذب شياطين، وأرى الكائنات الغريبة التي تسير بحرية، أشكالها أبشع من أي تصور أو وصف، أتجول وسطها ولا تراني وصرخاتها كانت مرعبة، ثم اكتشفت أنه لا يهرب أحد منها، فعندما تصعد إلى الأعلى فهي تدخل الأرض السادسة.

أغمضت عيني لثوانٍ لأجد نفس بداخلها، فهي مقرات لشياطين الإنس، تشبهنا كثيرًا فقد يكون صديقك منها، أو حتى قد تكون أنت منها ولكنك لا

تعلم بعد.. ترتدي الملابس وتتكلم بجميع اللغات بطريقة متقنة جدًا، ومنها من يستخدم لغة الإشارة، تبدو كالبشر أكثر مني.. ولكن ما كان عجيبًا هو ملابسها المختلفة، فمنها من يرتدي ملابس قديمة مقطوعة، ومنها من يرتدي ملابس باهظة الثمن، ملابس مختلفة من أزمنة مختلفة، وكأنه يتم بعثها إلى أزمنة مختلفة لتعيش فيها، فمنها من كان يرتدي ملابس الإنجليز ومنها من يرتدي ملابس حديثة ومنها من يرتدي ملابس الفراعنة.

بعد لحظات تحول كل شيء لظلام وبعد ثوانٍ وجدت نفسي بالأرض الخامسة حيث وجدت جثث الشياطين التي هُزمت من البشر في معارك قديمة، عندما قرر الشياطين الاستيلاء على الأرض لم تكن قواها مكتملة بعد ولكنها ظنت أن الرعب كان كافيًا، ولكن البشر فازوا بجميع معاركهم. تم دفن جثث الشياطين بالأرض الخامسة ثم قررت تغيير خطط حربها فأصبحت تستخدم طرقًا أخرى للسيطرة على الأرض، ومنها استخدام شياطين الإنس، فلن تظهر بمنظرها القبيح ولكنها تنشر كل ما هو قبيح بعالمنا. بعد ثوانٍ وجدت نفسي بالأرض الرابعة، مليئة بالصناديق وبشر بداخلها غير واعين، بشر من جميع

العصور نظرًا لاختلاف ملابسهم وملامحهم، ولكن يبدو أنهم ليسوا إلا فئران تجارب للعلماء من الشياطين، وجدت القليل منها ملتفة حول جثة لبشري تشرحها وكأنها تحاول دراسة الجسد البشري، ثم بدأت في خلع الجلد عن الجثة واللعب بها وتستخدمها كثياب. تحول كل شيء لظلام من جديد.

وجدت نفسي بالأرض الثالثة، إنها مختلفة وكأنني بداخل مقهى ليلي، فالموسيقى صاخبة والأضواء الحمراء منتشرة وراقصات قبيحات وغرف كثيرة مظلمة، تقف جميعها على المسرح ترقص على موسيقى عجيبة، وذلك الشيطان العجيب بسماعاته العريضة مرتدٍ «تي شيرت» مكتوب عليه D.J. Lucifer. تعجبت كثيرًا ولم أفهم ماذا يحدث، فالموسيقى صاخبة وسيئة، هل لهذا علاقة بما يحذروننا منه في عالمنا من الموسيقى الصاخبة غير المفهومة؟ مع انطفاء ضوء المسرح بالكامل وقبل عودته كنت بالفعل في الأرض الثانية.

وجدت السحرة الهاربين من الطغيان البشري، فمبانيهم الغريبة، والأشياء المتحركة من حولي، والرسومات على الجدران، وأدعيتهم وكلامهم العجيب.. أتأمل المكان، لفت نظري تلك الفتاة بشعرها

الأحمر المسترسل على ظهرها وحواجبها العريضة وملامحها الطفولية، تسير بابتسامتها البريئة لتحمل فتاة صغيرة من على الأرض وتضعها أمام طاولة مليئة بالأشياء وبدأت في تدريبها بأن تحرك الأشياء، والحيوانات الغريبة الشكل التي تقفز في مكانها وترقص، لا أفهم ماذا يفعلون هنا؟ لديهم عالم خاص مختفٍ، لقد ظننت بأن كل الأراضي يعيش بها الشيطاين.. سرت قليلًا بداخل كهوفهم الملونة ورائحة النبيذ المنتشرة، ثم رأيت تلك الفتاة مجددًا ترتدي ثوبًا أحمر خفيفًا تقف أمام فتحة صغيرة من المياه، يبدو أنه المكان الذي يستحمون به، اقتربت الفتاة وهي تتحسس المياه وأنا أقف بابتسامة عريضة.

أصبح كل شيء مظلمًا من جديد، توقفت قليلًا مبتسمًا، إلى الأرض الأولى، عالمي الطبيعي.. فوجدت البشر والغابات المحترقة والقتل العلني والفساد، لا أعلم في أي عام أنا ولكن يبدو أن العالم اقترب من نهايته، فعالمي يبدو أكثر ظلامًا من عالم الشياطين والكائنات الغريبة. فعندما يموت شخص ما فهذا قد يكون بسبب أنه يوجد كائن آخر يتم بعثه من عالم الجن، ولكنه ليصبح حيًا يحتاج إلى جسد شخص ما فتختار شخصًا عشوائيًا لتحصل على جسده، قد يكون

شخصًا، حيوانًا، أو مهما كان ما دام في إمكانه أن يخدم جيشها، في الغالب يصبح الشخص مريضًا لفترة ما حتى يصبح الكائن المبعوث من الجن جاهزًا لاستقبال ذلك الجسد، وعندما تحصل على الجسد تضع نسخة منه في القبر حتى لا يلاحظ أحد اختفاءه ثم ترسل كائنها بالجسد إلى زمن آخر حتى لا يتعرف عليه أحد ويكشفوا خطتها، وعندما يكتمل جيشها سنصل إلى نقطة لا عودة منها، محاصرين بجيشها المتظاهر في أشكال البشر لتخرب الدول وتدمر عالمنا حتى نجد أنفسنا بداخل دائرتها السوداء لتقتل من تبقى منا وتحصل على العالم، ليتم بعثنا نحن للأرض الثامنة ليعيش بها من استطاع الهروب حيًّا ويستلقي بها من حصل على روحه.

أسير بداخل الظلام والكهوف القديمة والثعابين في عالم غريب يبدو حيًّا جدًّا، أراهم واقفين بملابسهم الغريبة وجدرانهم المشققة، ثم دخلت إلى غرفة لأجد فتاة جالسة ومرتفعة عن الأرض بخطوات ومغمضة عينيها وتتكلم بلغة غريبة، فاقتربت منها أتفحصها ففتحت عينيها وحدقت إليّ، ثم أمسكت يدي بقوة وهي تنظر إليّ بذهول، ثم بدأ جسدي يختفي من بين يديها كالهواء، كيف رأتني؟ وكيف شعرت بي؟ لم يكن

من المفترض أن يحدث هذا، تألمت من يديها، حاولت الإمساك ولكنها فشلت، لقد أصبحت كالهواء، فخرجت من الباب وهي تصيح، ثم تحول كل شيء حولي إلى اللون الأبيض. غارق في عرقي واحمرار وجهي وعيني التي أصبحت أكثر احمرارًا من القمر الدامي، كل شيء من حولي يتحرك بسرعة، كل شيء يختفي من حولي. ثم ظهر شخص أمامي بدون ملامح، وبدأت أختفي أنا تدريجيًا وكلما اختفت ملامحي ازدادت ملامحه وضوحًا، إنه أنا ولكن إذا أضفنا عشرين سنة إلى عمري، بدأت تتضح صورته أكثر، يبتسم وأشعر أنه يمتص روحي، ثم عدت ببطء إلى الظلام من جديد.

(13)

أشعر باهتزازات خفيفة حولي وصوت سيارات مارة بجانبي، استيقظت لأجد نفسي مستلقيًا على مقعد خشبي عريض بداخل جنينة ملتفًا بجرائد وبذقن كثيفة زادت من وزن وجهي بعض الكيلوجرامات، أنظر حولي في حيرة، لا أعلم كيف وصلت إلى هنا، كيف انتهى بي الحال على هذا المقعد؟ نهضت من مكاني مفزوعًا عندما رأيت الثلج المحيط بي وملامح الشارع المختلفة، حتى ملامح الأشخاص أنفسهم، ورائحة الهواء الخالية من العوادم.. كل شيء مختلف. أركض بجميع أنحاء الحديقة حتى انقطعت أنفاسي وينظر إليّ الجميع بتعجب فأنا مجرد متشرد يركض بجنون، جلست في مكاني ونظرت إلى يدي لألاحظ التجاعيد التي انتشرت بها، ومفاصلي التي أصبحت أكثر تصلبًا، وأنفاسي التي انقطعت سريعًا عندما بدأت في التحرك، أأنا في حلم آخر أم ماذا يحدث؟

بحثت عن مرآة ولكنني لم أجد سوى انعكاس ملامحي على زجاج السيارات، وجهي متسخ وشاحب ومجعد وإصابة خفيفة تاركة علامة على جبيني وذقني الطويلة، يبدو أنني متشرد بالفعل! وأرقام السيارات أكدت لي بأنني خارج البلد وأنني في مكان

آخر بنفس ملامحي ولكن أكبر سنًا، ويبدو أنني في زمن آخر!

جلست أحاول أن أفهم ماذا يحدث، كيف أتيت إلى هنا، ولماذا أبدو هكذا؟ جاء متشرد آخر وجلس بجانبي ببواقي طعام انتشلها من على أحد الأرصفة ليقدمها لي قبل أن ألقي بها أرضًا، فيغضب ويقول لي:

- هل جننت؟

- من أنت؟

فنظر إليّ بتعجب دون إجابة فنهضت من مكاني أسير في طرق قصيرة لا أعلم أين أذهب أو ماذا أفعل، ثم دخلت حارة فارغة، جوها دافئ وغريب بصورة غريبة مقارنة بباقي الأماكن، فتشت في جيوبي ولم أجد سوى نقود معدنية لا تكفي لشراء أي شيء، بالطبع فأنا مجرد متشرد تائه في عالم غريب وكل شيء يبدو مختلفًا! جلست بمكاني لا أعلم ماذا أفعل فجسدي مرهق وجائع، فانتابني النعاس قليلًا نظرًا لأوامر عقلي حتى تهرب أمعائي من الشعور بالجوع، وبالفعل ذهبت في نوم عميق ليصطدم عقلي ببعض الصور السريعة لأشخاص يلحقون بي وأنا أحاول الهرب، لا أستطيع التعرف على ملامحهم ولكن أستمع إلى صوت صراخ امرأة تطلب مني الهرب.

استيقظت لأجد الدنيا ليلًا وشخصين واقفين أمامي أحدهما يرتدي بذلة سوداء ونظارة تخفي ملامحه وابتسامة عريضة ثم مد يده لي، والآخر يرتدي ملابس عادية وقصير القامة، نهضت من مكاني منتظرًا أن يقولا أي شيء، بعد لحظات خلع نظارته ليكشف عينه، قد تكون من أكثر العيون السوداء التي رأيتها في حياتي، مجرد ظلام بداخل عينه وبؤرة عينه متسعة بطريقة غريبة.

قال قصير القامة بنظرات توتر:

- هذا هو.

أجاب الشخص صاحب النظارة وهو ما زال محتفظًا بابتسامته:

- «خالد».. هل تعلم أين أنت؟

فنظرت إليهما نظرات كانت كافية أن يعرفا الإجابة، فارتدى نظارته وهو يقول:

- إذًا الأخبار حقيقية، هذا شيء عجيب ولم يحدث من قبل، يجب أن نرحل حالًا.

- من أنتما؟

أشار إليّ أن أتبعه وبدأ يمشي بخطوات سريعة وأنا أحاول اللحاق بهما، يبدو أنهما يعلمان شيئًا لا أعلمه، ثم أجاب:

- ليس من المهم أن تعرف الآن.

فسألتهما مجددًا:

- هل أنتما عرب؟

فأجاب قصير القامة:

- مش من مكان، زي ما أنت مش من مكان برضه.

فأجبته بتعجب:

- ولكن أنا من مصر!

توقفا في مكانهما متعجبين ثم نظرا حولهما في قلق وبدآ يسيران بسرعة من جديد فسألني الرجل صاحب النظارة السوداء:

- ما آخر شيء تتذكره عن عالمك؟

فوضعت يدي على رأسي فعقلي يؤلمني وأحاول أن أتذكر:

- آخر شيء أتذكره هو أنني ذهبت إلى صديقة.

- «ديجا»؟

فنظرت إليه بتعجب ثم أكمل كلامه:

- هذا يؤكد كل شيء.. لقد رأيت «زين» ومساعداه عندما ذهبت لترى «ديجا» وعندما قتلوها وجدت نفسك في غرفتك ثم استيقظت لتجد نفسك هنا.

- كيف علمت كل هذا؟

- أنت في خطر الآن، العالم في خطر.. لم يكن من المفترض أن تكون هنا..

صمت للحظات ثم سألته:

- مين «راهوت»؟

فحدقا إليّ ونظرا حولهما في رعب ثم توقفت سيارة سوداء بالقرب من مدخل الشارع فاتجهنا إليها سريعًا وركبنا بداخلها، لم يترك صاحب النظارة الهاتف المحمول، يتكلم بملامح توتر في الهاتف وينظر إليّ مما أثار الشك بداخلي، لماذا عليّ تصديق كل ما قاله؟ فقد أكون أخبرت أحدهم تلك التفاصيل من قبل! توقفت السيارة بالقرب من قسم الشرطة، أدركت حينها بأننا في فرنسا، ارتعبت عندما توقفنا أمام قسم الشرطة وشككت للحظة أنهم على وشك تسليمي للشرطة، فابتسم صاحب النظارة السوداء وكأنه يدرك ما يدور في عقلي:

- لا تقلق، انزل.

نزلت من السيارة وسط نظرات رجال الشرطة ولكنهم يلقون التحية على صاحب النظارة السوداء، أسير بنظرات قلق وأستعد للهروب في أي لحظة إذا حاول أحدهم الاقتراب مني، حتى وصلنا أمام مكتب على بابه لوحة كبيرة باسم «ويليام»، أصبحت أعلم

اسمه الآن، إن صاحب النظارة السوداء اسمه «ويليام».

جلسنا بالداخل محاطين بتلك اللوح لفنانين معروفين وأثاث من الطراز القديم وأسلحة معلقة على الجدران، خلع «ويليام» سترته السوداء وجلس على كرسي المكتب وجلسنا نحن أمام المكتب ثم ضغط على زر بالهاتف الموضوع أمامه على المكتب وتكلم مع أحدهم باللغة الفرنسية وبعد لحظات دخل رجل يحمل كوب ليمون وفنجاني قهوة ثم سألتهما:

- هل يمكن لأحدكما شرح ما حدث؟

أخرج «ويليام» علبة سجائره مرسومًا عليها رسمة عجيبة ثم أشعل سيجارة منها وأخذ نفسًا عميقًا منها وأخرج الدخان من فمه في أشكال هندسية مختلفة، رفضت أنا والشخص الآخر أن نأخذ سيجارة ولكن رائحة السجائر أثارت القليل من الفضول فأخذت واحدة لأشربها بشراسة مما أثار سعالًا قويًا بداخلي، ابتسم «ويليام» قائلًا:

- أنت تعلم أن أرواحنا تنتقل من جسد إلى جسد آخر بعد الموت، وهذا يعني أن نهايتك هي ليست نهاية روحك.

عجبت لكلامه قائلًا:

- لا أفهم ماذا تقول!

- أنت رأيت أشياء لم يكن من المفترض أن تراها، ابتداء من رحلاتك في الماضي وكل القوانين التي خالفتها أنت و«ديجا».

قاطعت كلامه قائلًا:

- لكن اسمه «راهوت» وليس «ديجا»!

فهمس لي بتوتر قائلًا:

- «خالد»، لا تذكر هذا الاسم في أي مكان ولا تخبر أحدًا أنك تعلمه، أنت لا تعلم ما الذي تتكلم عنه.

ثم أخذ نفسًا من السيجارة وأكمل كلامه:

- قوانين الطبيعة والحياة التي خالفتها أنت و«ديجا» قد أضرت توازن الزمن، أنت انتقلت بالزمن بصورة عنيفة، و«ديجا» قبل أن تموت هي من فعلت ذلك لتنقذك، «ديجا» خالفت قانون من قوانين السحر وهو التنقل بالزمن.. ليس هذا فقط.. فـ«ديجا» خالفت قانونًا أكبر.

كيف يعلم كل هذا؟! أصبح مخي مليئًا بالتساؤلات، ماذا يعني بأنني انتقلت بالزمن، وهل يوجد ما يسمى التنقل بالزمن؟! فسألته باستغراب:

- أي قانون؟ وكيف تعلم كل هذا؟ وأنا ما زلت لا أفهم أي شيء!

فأخذ نفسًا آخر من السيجارة وهو يقول:

- أنا أعلم الكثير، وأنا أتكلم عن قانون عالم السحر، «ديجا» خالفت قوانين كثيرة وفتحت بوابات كثيرة لعوالم لا يجب أن يعلم عنها أحد، والعالم الأخير الذي رأيته لم يكن حلمًا، كان واقعًا داخل حلم يا «خالد»، أنت ذهبت إلى عالم طاغٍ مظلم مختبئ منذ آلاف السنين، وأنت علمت أسرارهم ورأيت كل شيء وهذا ما جعلنا نعلم كل شيء، لقد تم إرسال رسائل زمنية لتنبيهنا بأننا قد نجدك في أي مكان.

- أي حلم تقصده؟

- السبع أراضٍ يا «خالد»!

نهض «ويليام» وأشار إلينا أن نجلس بالصالون أسفل شباك عريض يدخل منه ضوء كثيف، نهضت أنا والشخص الآخر لنتحرك باتجاه الصالون، ما زال «ويليام» واقفًا أمام الشباك ويأخذ نفسًا عميقًا جدًّا هذه المرة مستعدًّا أن يلقيها، وقال لي:

- استمع لي بحرص يا «خالد»، ما سأقوله الآن قد يبدو غريبًا ولكن بعد أن تعرف يجب أن تعلم أنك في خطر ولن يقدر أي شخص على حمايتك، ولكن الحل أن

—

قطع كلامه رصاصة بمنتصف رأسه قادمة من اتجاه الشباك رمته لبضعة أمتار للخلف وفي جزء من الثانية

أصيب كتفي برصاصة أخرى لتمر من داخل عظامي، أسمع صوت رنين عالٍ بأذني، أشعر بالدوار ويحترق الجرح وكأنها رصاصة مصحوبة بماء نار، ويصرخ الشخص الآخر بجانبي، الرصاصة استمرت في صدره تحترق بشدة وتزداد عروقه امتلاء بالدم واحمرارًا، شكل الرصاصة عجيب، ليست رصاصة عادية فهي تحترق بشدة ويخرج من الجرح مادة حمراء، ثم فقدت الوعي من الألم.

«في عالم الأحلام لا يكون الأمر عشوائيًا، فالعقل بطبعه لا يتوقف عن العمل ولكن في أثناء النوم يصيبه الملل فيبدأ في كتابة سيناريو لأحلامك، ما بداخل البيوت البيضاء وكل ما هو جميل فهو من صنعك، وكل ما هو مرعب فهو بسبب تدخل الشيطان الجالس بغرفتك ليلًا، فهو قرر أن يمتص القليل من روحك ولفعل ذلك فهو يشغلك في حلم من صنعه، وعندما ينتهي من امتصاص القليل من روحك ستستيقظ من النوم مرتعبًا حينها فقط ستجده في أكثر الأماكن ظلامًا في غرفتك يبتسم، ولكنك لن تلاحظ ذلك لأنك في الغالب ستكون منشغلًا بتناول كوب من المياه أو العودة إلى النوم.»

استيقظت بداخل غرفة بالمستشفى وتتألم كتفي

بشدة، والشرطة واقفة بالخارج والطبيب واقف بجانبي يتأكد من أن جميع مؤشراتي الحيوية طبيعية، ثم دخل ضابط من الشرطة للتحقيق معي ويتكلم باللغة الفرنسية، أعلم القليل من الفرنسية ولكنني لا أتقنها فأخبرته بأنني لا أفهم الفرنسية وهو لا يتكلم الإنجليزية أيضًا فأحضروا مترجمًا عربيًا وبدؤوا التحقيق معي.

بدأ يتكلم المحقق ويتكلم المترجم من خلفه:

- ما علاقتك بـ«ويليام»؟

- ليست لي علاقة به.

- ولماذا كنت معه؟

- لا أعلم، أنا لا أتذكر أي شيء، ماذا حدث له؟

- «ويليام» لم ينجُ.

فهذا شيء متوقع.. فمن ينجو من رصاصة في منتصف الرأس؟!

سألتهم:

- والشخص الآخر؟

نظروا إلى بعض بتعجب:

- اسمك «خالد» أليس كذلك؟

فأشرت برأسي بالإيجاب فتكلم المحقق وملامح

التعجب على وجهه:

- «خالد»، لم يوجد أحد غيرك أنت و«ويليام»، ولم يرَ أحد شخصًا ثالثًا معكما وأنتما داخلين القسم.

- كيف؟ كان معنا شخص ثالث.

- ماذا حدث بالضبط؟ بالتفاصيل.

- تم إطلاق النيران من النافذة، «ويليام» أصيب الأول ثم أنا.

فنظر إليّ المحقق بنظرات شك وهو يسألني:

- ولكن ما علاقتك بـ«ويليام»؟

- لا أتذكر!

- هل أنت في فرنسا منذ فترة؟

- لا أعلم ولا أتذكر.

- ليس لديك ما يثبت شخصيتك، ولا تعلم كيف أتيت إلى هنا، ولا تعلم من هو «ويليام».

- لا أعلم شيئًا.

ينظر الضابط إلى المحقق الآخر، لم يقل كلمة واحدة فهو واقف طوال المحادثة يستند إلى الحائط وينظر إليّ ثم ابتسم وخرج من الغرفة واتبعه الضابط والمترجم، يتكلمون بالخارج ثم رحلوا ليتركوني متصلًا بكيس الدم المعلق بجانبي ثم رحل الجميع ولم يتبقَّ

غيري أنا وتلك الدماء لشخص غريب تمتزج بدمائي، أستطيع أن أشعر بها، فعروقي تزداد حجمًا، أصبح كل شيء مظلمًا من حولي لفترة صغيرة وأصوات من حولي غريبة، بدأت أشعر بحركة غريبة بداخل الجدران وفجأة دوائر صغيرة بدأت تظهر بداخل الجدران وتزداد اتساعًا ويقترب الصوت أكثر، ثم سمعت صوت فتاة تصرخ وصوت أشخاص يضحكون، أنظر من حولي ولكن لا أرى شيئًا سوى ثعابين تحاول الخروج من تلك الفتحات، حينها فقط تأكدت بأن الحلم لم يكن حلمًا، ماذا إذا انتقلت روحي إلى ذلك المكان ورأيت كل شيء بالفعل!

ترتعش يدي اليمنى، لم ترتعش بهذا الشكل من قبل، وتحولت ملامح الغرفة من اللون الأبيض إلى غرفة حمراء وخيوط بدأت تنتشر في كل مكان، والثعابين أصبحت بالفعل داخل الغرفة، وصوت الصراخ يزداد من داخل إحدى الفتحات، ثم رأيت فتاة تمشي بخطوات سريعة ويلحق بها شخصان، وعلى باب غرفتي يقف رجل بملامح لا يمكنني تمييزها يدخن سيجارة ثم أخرج سكينًا من جيبه واقترب مني، أشعر بأنني مشلول غير قادر على الحركة، كل ما تمكنت من فعله هو الصراخ، يقترب مني بشدة وملامحه تزداد وضوحًا

كلما اقترب، وجهه المحروق وأسنانه السوداء ورائحة أنفاسه الكريهة، ثم وقف بجانبي بابتسامة ووضع أطرف السكين على عنقي لأشعر به على الوريد المغذي لعقلي.. ولكن في أقل من لحظة عاد كل شيء إلى طبيعته، الطبيب يقف بجانبي يحاول تهدئتي ثم اتبعته ممرضات وازداد عددهن سريعًا محاولات الإمساك بي فلم يجدوا حلًّا سوى غرز حقنة بقدمي لتهدأ تشنجاتي ويتحول كل شيء إلى لا شيء وأغوص في عالم من الظلام من جديد.

(14)

استيقظت بداخل غرفة بيضاء بالكامل وفي نهايتها يوجد باب أسود، ذهبت إليه وفتحته لأدخل غرفة بيضاء أخرى بالكامل وفي وسطها دائرة من الأشخاص يتكلمون ويضحكون، وعندما دخلت الغرفة توقف الجميع عن الضحك ولم يلتفت أحد، اقتربت منهم بهدوء ودخلت في وسط الدائرة لأرى «نادين» جالسة في الدائرة مع أشخاص آخرين لا أعرفهم وجميعهم لا يتحركون كالتماثيل، ويوجد كرسي شاغر في منتصف الدائرة وعندما جلست نظروا إليّ جميعًا مبتسمين، ثم نهض أحدهم وصافحني وهو يقول:

- «خالد»! مرحبًا بك في المجلس.

- مجلس ماذا؟

عاد الشخص إلى مقعده، ويهمسون لبعضهم جميعًا فنظرت إلى «نادين» قائلًا:

- «نادين» أين أنا؟

- كنت محقة عندما أخبرتك بأن روحك مختلفة يا «خالد»..

- كيف أتيتِ إلى هنا؟

- مَن أتى بك إلى هنا؟ هذا هو السؤال.

- لا أعلم.. بسبب أحلام وشخص اسمه «راهوت».

نظروا إليّ جميعًا في تعجب، ثم عادوا يهمسون لبعضهم من جديد، ابتسمت «نادين» قائلة:

- «خالد»، أعتقد أن البداية أقرب مما كنت أتخيل.

- البداية لماذا؟ وكيف أنتِ هنا؟

نهضت «نادين» من مكانها وهي تقول:

- هل تتذكر عندما كان يخبرنا أبي الفوازير ومن يجد الحل أولًا كان يحضر له هدية؟

- نعم أتذكر، وكنت أخسر دائمًا.

- بالرغم من أنك أكثر ذكاء ولكن لم ترهق نفسك لتجد الحل، فكنت دائمًا تجد الحل متأخرًا بعد أن أكون وجدت أنا الحل وفزت بالهدية ومللت منها.

- ما العلاقة؟

- الفزورة التي وجدت حلها هي ما أتت بك إلى هنا.

- ماذا تقصدين؟

- الحياة.. أنت رأيت جزءًا كبيرًا من ظلامها، عندما حللت أنا الفزورة رأيت الظلام ولكن لم أرَ ما رأيته أنت ولم يره أحد، لأن بوابات «راهوت» لم يرها أحد، اعتدنا أن نسمع قصصها فقط.. أنا رأيت أشياء أخرى كثيرة ولكن روحي لم تكن قوية كفاية وكنت صغيرة حينها،

اعتقدت بأنني متوهمة فحكيت لكل من حولي عن الأرواح وعن العالم المظلم أسفلنا، ولكن لم يصدقني أحد وانتهي بي الحال في المستشفى، أو هذا ما يعتقدونه، ولكن أنا خارجها معظم الوقت.. بداخل أحلام الناس.

- ماذا تعنين؟

- مثل الآن.. أنا في حلم من أحلامك، قررت أن آتي وأزورك قبل البداية.

صفقت «نادين» فتحول كل شيء حولنا إلى حديقة واسعة، ثم صفقت مجددًا لأجد نفسي بداخل طائرة فوق السحاب، ثم صفقت مجددًا لنعود إلى نفس الغرفة، فابتسمت وهي تقول:

- هذا شيء من الأشياء التي تعلمتها من الظلام، التحكم في الحلم.. أنا لم أخترق القوانين لكن أنت اخترقت قوانين كثيرة والعالم سيتحول إلى دمار قد يكون بعد يوم أو سنة، الأمر عائد إليك.

- كيف؟

بدأت الغرفة تتحول من اللون الأبيض إلى الأسود تدريجيًا فسألتها:

- أنتِ من تفعلين ذلك؟

- لا.. العالم يتحول إلى ظلام يا «خالد»، المقابر

ستنفتح والشياطين تحاول أن تتنفس من جديد.. هذه المرة يجب أن تحل الفزورة وحدك.. أنا لا أقدر على حلها لأن دوري انتهى هنا، إذا عدت ستجدني في انتظارك، وإذا لم تعد فلن يشكل الأمر فرقًا فسيكون الجميع أمواتًا حينها.

أصبحت الغرفة بالكامل مظلمة، فنظرت «نادين» حولها في قلق وهي تقول:

- حان الوقت لتستيقظ يا «خالد»!

(15)

نهضت من نوم عميق، يحترق جسدي وعقلي، بالكاد أرى أي شيء حولي، تصفعني الرياح الباردة على وجهي وأتنفس بصعوبة، وجدت نفسي أستند إلى فتاة تسير بجانبي وتحاول تهدئتي، لا أعلم من هي، فارتميت على الأرض من الألم وبدأت أنفاسي تهدأ ولكن ما زال جسدي يحترق، بدأت الرؤية تعود تدريجيًا والفتاة جلست بجانبي، فتاة يميزها وشم عريض على وجهها وشعرها الأسود الكثيف يخبئ علامة تعتلي عينها اليسرى، تلتقط أنفاسها وكأنها أنهت ماراثونًا منذ ثوانٍ وتبدو ملامح القلق على عينيها، تنظر حولها وكأنه يوجد من يراقبها، ثم نظرت إليَّ بقلق ولكننا لم نتكلم إلا عندما التقطتُ أنفاسًا كافية لأسألها:

- من أنتِ؟

تنظر حولها في خوف وتوتر:

- هذا ليس الوقت المناسب.. أنت نجوت بأعجوبة واعتقدوا أنك مت.. الرصاصة كانت كافية لقتلك ولكن لسبب ما، ما زلت على قيد الحياة!

- من يريد قتلي؟ وأين أنا؟

فأجابت وهي تلتقط أنفاسها وتلف قطعة من

القماش على يديها المجروحتين:

- سأخبرك كل شيء، ولكن يجب أن نتحرك وإلا مصيري سيكون مثل «ويليام».

نظرت إليها وهي بادلتني النظرات ولكن لم يبدُ أنها تريد إكمال الحديث وتريد أن نصمت حتى نلتقط أنفاسنا، نظرت حولي فنحن في حارة غريبة طويلة مليئة بأعمدة الإنارة على أطرافها، الحارة فارغة لا يوجد بها سوى بعض الأشخاص المرتمين على جانبيها غارقين في عرقهم وتفوح منهم رائحة المخدرات، والبعض الآخر يحتضن حقنًا، والبعض الآخر فاقد الوعي وما زالت الحقن في عروقهم، وإذا صمت للحظات ستتمكن من سماع الضوضاء آتية من خلف الجدران، يمكنني سماع صوت عراك بين أشخاص، ثم يليه صوت قطار، ويليه نباح الكلاب، ثم صراخ ممتزج مع العراك بين أشخاص مجددًا، ثم صمت كل شيء لثوانٍ ليتحول العراك إلى صراخ وصوت أشخاص تحاول الهرب ومرتعبة، نباح الكلاب تحول إلى صراخ متوسلة المساعدة، ثم صمت كل شيء مجددًا، تلك الحارة لا تصمت أبدًا ولكن في تلك اللحظة لم يمكننا سوى سماع صوت حواف حديدية تداعب الجدران وأصوات حولنا ولكن لا يمكننا أن نرى المصدر.

وقفت الفتاة في رعب وأمسكت يدي لتساعدني على النهوض وبدأت أعمدة الإنارة تنطفئ تدريجيًّا من بداية الحارة ونحن في منتصفها، ازداد صوت نفسها بقوة وأنا أحاول أن أفهم ماذا يحدث ولكن كنت واثقًا بأنه لم يكن الوقت المناسب لمحاولة فهم أي شيء ولكنه وقت الهرب، نهضت من مكاني وما زال جسدي يحترق وأتألم بشدة، أستند بجسدي إليها ونحاول أن نمشي بأقصى سرعة نقدر عليها، لاحظت بعض الدموع في عينيها، حاولَت أن تخفيها ولكنها فشلت، نظرت إليّ وكأنها تحاول أن تخبرني بأن فرصة النجاة ليست جيدة فيجب أن نسرع أكثر، يزداد صوت الحواف الحديدية، وصوت الشرارة الناتجة عن احتكاك الحديد والجدار، وبدأت صرخات الأشخاص المدمنين.. في تلك اللحظة فقط بدأت مفاصلي في الاستيقاظ فقررت بأن تساعدني، ازدادت سرعتي وازدادت سرعتها مع سرعتي وبالتالي أصبحت خطواتنا أسرع ثم تحولنا من المشي بالخطوة السريعة إلى الركض بالصورة البطيئة ثم ازدادت سرعتنا أكثر فأصبحنا بداخل الماراثون الوهمي من جديد، ماراثون النجاة وعدم الموت اليوم.. تزداد خطواتنا سرعة بالكاد نقترب من نهاية الحارة، ولكن ماذا بعد؟ هل نهايتها هي مهربنا؟ نظرت إليّ الفتاة وأخبرتني بملامح خوف:

- «خالد»، مهما حدث، حاول ألا تدخل حلمًا من أحلامك مجددًا!

- كيف دخلت حلمًا جديدًا من دون «ديجا»؟ هي كانت وسيلتي الوحيدة!

- ستفهم كل شيء في وقته، يجب أن نصل إلى آخر هذا الطريق.

اقتربنا من نهاية الحارة، وصوت الحواف يقترب ولكن أصبح تصاحبه أصوات أنفاس عالية الآن، علو الصوت جعلني أشعر بأنهم على بعد خطوات منا، فنظرت الفتاة إليّ بقلق وهي تقول:

- لا تنظر خلفك مهما حدث!

حاولت أن أنظر خلفي ولكنها أمسكت برأسي، فنظرت إليّ وأشارت برأسها بالنفي ففهمت بأنها تريد أن تخبرني بأن أحيانًا ألا نرى نهايتنا يكون أفضل! على بعد خطوات من نهاية الحارة أصبحت أستطيع الشعور بحرارتهم وحوافهم على بعض خطوات من ظهري ثم أصبحت أصوات الحواف والأنفاس مصاحبة بصياح الآن، صياح عجيب، لقد ثار بي الفضول أنني أريد أن أرى ماذا يلاحقني، فنظرت خلفي ورأيتهم.. البعض منهم يشبهوننا كثيرًا والبعض الآخر يوجد على أجسادهم وشوم مضيئة، وأعينهم جافة رفيعة، وفم

بعضهم مشوه، وأنوفهم رفيعة، وتهتز رؤوس بعضهم بسرعة كبيرة يمينًا وشمالًا، يمكنك أن تلاحظ تغيير ملامحهم، من وجه إلى وجه في كل اهتزاز.. أنظر إليهم بذهول، من هؤلاء؟ فأشكالهم متنوعة منهم من يشبه البشر ومنهم من كان على وشك أن يشبه البشر، ومنهم لا أعلم كيف أصفه ولكن وصف قبيح ليس كافيًا، مفاصلي لم تعد تتحمل فوقعت على الأرض وأرجع خطوات إلى الخلف وأنا ما زلت على الأرض.. أصبحت في نهاية الحارة، ماذا سيحدث الآن؟ والفتاة واقفة بجانبي تنظر إليهم وهم يقتربون بشدة حتى وقفوا أمامي، ينظرون إليّ في عيني، أعينهم ليست مثلنا، يمكنني أن أرى الظلام بداخل أعينهم، أرى الصراخ والعذاب، يمكنني أن أرى كل ما هو غير محبوب بداخل أعينهم، توقفوا ولم يتمكنوا من التقدم أكثر، كأن حائطًا غير مرئي يفصل بيننا، أستطيع أن أشعر بأنفاسهم على وجهي، ابتسموا لي ثم أخذوا بعض الخطوات إلى الخلف ثم التفتوا ورحلوا، عادت الأضواء من جديد ولكن الحارة أصبحت صامتة فأصبح المدمنون مجرد جثث ملقاة على الجانبين.. ارتمت الفتاه على الأرض لتلتقط أنفاسها من جديد، بعد أن هدأت قليلًا قالت بحزن:

- كان يجب ألا يحدث كل ذلك.

فأجبتها بغضب وخوف:

- أريد أن أفهم كل شيء!

فنظرت إليّ وأخذت نفسًا عميقًا وهي تقول:

- يلاحقونك لأنهم لا يريدون أن تخبر أحدًا عن عالمهم.

- ولكن ما رأيته كان مجرد حلم!

فنظرت إليّ بغضب:

- حلم؟ كان يجب ألا ترى أي شيء من هذا، السبع أراضٍ لم تكن حلمًا، إنه الدمار، وبسببك هم في عالمنا الآن عندما علموا بوجودك ومكانك! ولكن هذه ليست النهاية، أنت أصبحت وسيلتهم للماضي، ليس الماضي فقط ولكنك أصبحت وسيلتهم لجميع الأزمنة يا «خالد»، جميعها! كان يجب ألا يتركك «راهوت» ترى كل هذا.

صمت للحظات ثم سألتها:

- هل يمكنني قول اسمه الآن؟

فنظرت حولها للحظات ثم نظرت إليّ قائلة:

- لم يعد يشكل الأمر فرقًا، لقد عرفوا كل شيء.

شعرت بالحزن قليلًا بأن الجميع يلومه، فصمت قليلًا

ثم قلت:

- لقد حذرني كثيرًا وأنا مَن أصر.

- «راهوت» اخترق الكثير من القوانين وهذه لم تكن أول مرة، ولكن هذه المرة كل شيء أصبح ضدنا.

- كيف رأيت حلمًا من دونه؟

صمتت قليلًا وشعرت بأنها يجب أن تجيب عن هذا السؤال:

- هل تتذكر اليوم الذي مات فيه؟ الشعاع وكل ما حدث وعندما استيقظت على الرصيف، هذه كانت بداية النهاية في عالمنا.

- عالم من؟

فأجابت بضيق:

- السحرة يا «خالد»! لدينا قوانين وهذا ما أراد «ويليام» إخبارك به، وأبسطها أنه لا يجب أن نظهر للناس بسهولة، وأخطرها أن نخترق الزمن.. الكل علم مكان «راهوت» بعد أن اختفى لسنين، «راهوت» اخترق الزمن لينقذك.

فسألت متعجبًا:

- «راهوت» اخترق الزمن لينقذني؟!

فصمتت الفتاة للحظة ثم عاودت الكلام:

- نعم.. ومن رأيتهم يومها كانوا يريدون أخذ «راهوت» إلى عالمهم لاستخدام بواباته، والحلم الذي رأيته كان عشوائيًا وقد يحدث هذا مجددًا، أنت الآن أصبحت ضد الطبيعة وضد العالم المظلم.

- كيف أعود إلى عالمي؟

- لا أحد يعلم، ولكن يجب أن تختبئ الآن لأنك لست في أمان ولا هنا حتى، سيحاولون اختراق الجدار قريبًا!

ثم سألتها:

- من هو «راهوت»؟

فصمتت للحظات وابتسمت وهي تقول:

- «راهوت» كان من أعظم السحرة في عالمنا، ولكن دائمًا كان متمردًا ويخالف القوانين، «راهوت» لم يصل أحد إلى نصف قوته ولن يصل أحد إلى قوته، «راهوت» هو أقدم السحرة وأقواهم وكان مرشحًا لقيادة عالمنا، ولكنه اختفى من دون مقدمات، قال البعض إن السبب هو موت حبيبته.. هذا حدث منذ زمن لم أكن أنا وأجيال كثيرة على قيد الحياة حينها، ولكنهم أخبرونا أنه بعد سنين جاءهم خبر بأن «راهوت» يعيش بداخل كهف.

توقفت الفتاة عن الكلام ونظرت حولها في قلق ثم

نهضت في هدوء وأخذت نفسًا عميقًا وساعدتني في النهوض، وقفنا للحظات نستعد أن نتحرك ولكن فجأة اخترق ظهرها سيف بحواف ذهبية وخرج من أمعائها، لقد عادوا وظهروا من الفراغ.. بدأت جميع الأضواء تنطفئ من جديد وبدأ عددهم يزداد خلفها.. واحد، اثنان، ثلاثة، عشرة، خمسون، أكثر من مائة.. وما زالوا يزيدون، فقدت القدرة على إحصائهم مع ازدياد عددهم السريع، يحملها بسيفه إلى فوق وهي في منتصفه، تسيل الدماء من فمها وتنظر إليّ وهي تبكي، وبدأت تسيل دماؤها على الأرض وبدؤوا هم يخبطون على الجدار الخفي بشراسة، يخبطون برؤوسهم ولحظها السيئ كانت هي على أعتاب الجدار على بعد خطوات قليلة من نهايته، حاولت جاهدة أن تتكلم لتقول لي «أهرب!» فألقاها من على سيفه.

بدأت أستند إلى الحائط وأسير بأقصى سرعة أقدر عليها، تسيل الدماء من كتفي بسبب الإصابة، يصيحون ويبدون أكثر غضبًا، نظرت فوقي لأرى الكثير منهم فوق الجدران الصخرية ويحاولون أيضًا اختراق الجدار المخفي، وكأن المكان كله عبارة عن جدار مغلق ولكن هم وحدهم من يمكنهم رؤيته، لا أعلم كيف أفسر ذلك ولكن ما أعلمه أنني ما عدت قادرًا على السير، فقدت

الكثير من الدماء وتزداد الرياح حولي ولم يعد بإمكاني التحمل، وقعت على الأرض أنظر إليهم وهم قادمون نحوي، اخترقوا الشيء الذي لا يمكنني تفسيره، يقتربون أكثر بابتسامة تعلو وجوههم، أصبحوا على بعد خطوات مني قريبين كفاية لأشعر بحرارة أجسادهم التي حولت الرياح الباردة إلى رياح شديدة الحرارة، فأصبحت مؤمنًا بأن كل المعجزات انتهت ولا مفر تلك المرة.. تتحول الجدران الفاتحة اللون إلى جدران سوداء وبدأت الثعابين تخرج من داخل الجدران، قطط سوداء، عدد لا يحصى منها، فاكتفيت بأن أغلق عيني.. ولكن لم يحدث شيء سوى أنني سمعت أشخاصًا يصرخون وقادمون من خلفي، فتحت عيني لأجد نفسي محاطًا بأشخاص مختلفة، فملامحهم أكثر هدوءًا من الآخرين ولكن ما زالت ملامحهم غاضبة جدًا، واقفون أمامي في وجه الآخرين فأصبحت محاصرًا وسط حرب بين الخير والشر، ولكن لا أعلم إن كانت بين الخير والشر أم الشر والشر، والفائز سيأخذني في عالمه ليفعلوا بي ما يريدون.

تقدم أحد الأشخاص المحاطين بي، يرتدي ثوبًا أبيضًا مزخرفًا بالرموز العجيبة ويحمل عصى أطرافها مضيئة ومزينة بالرسومات، وقف أمامي وهو يقول

للأشخاص الآخرين:

- لقد اخترقتم المعاهدة، لماذا أنتم هنا!

عادت البسمة على وجهي قليلًا، فأعتقد أنها قد تكون معجزتي الأخيرة، حتى وإن كانت ملامح القلق واضحة على وجهه للجميع ولكنه كان واثقًا من كلماته.. تقدم قائدهم من الجهة الأخرى بابتسامة ويحمل سيفه اللامع ويرتدي زيًا أسود طويلًا مزخرفًا بالظلام والرعب.. اقترب كثيرًا حتى أصبح على بعد خطوات مني فنظر إلى القائد صاحب الزي الأبيض وهو يقول له:

- «أطلنطس» صديقي.. لم أرك منذ فترة كبيرة، نحن هنا من أجل البشري.

نظر إليّ وهو يكمل كلامه:

- سنرحل فور تسليمه لنا.

فرد عليه «أطلنطس»:

- هو في أرضنا الآن، عدّه ملكك عندما يخرج من هنا.

اختفت الابتسامة من على وجه الآخر ثم قال غاضبًا:

- «أطلنطس»، لن أكرر كلامي كثيرًا، أعطني البشري وسأتركك في سلام!

فخبط «أطلنطس» بعصاه البيضاء الأرض وهو يقول غاضبًا:

- هل تهددني يا أحمق؟ ارحل عن أرضنا يا «جوسيف»!

«أطلنطس» و«جوسيف»، لوهلة ظننت أنها حرب بين الملائكة والشياطين، ولكن هذا مستحيل فتلك الأشياء لا تحدث أمام أعين البشر، قد ينفجر عقلي محاولًا استيعاب ماذا يحدث ولكن كل ما كان يدور في بالي إن كنت سأخرج من هنا أم لا.. لاحظت زيادة قبضتهم على أسلحتهم فأدركت بأنه ستقوم حرب خيالية بينهم بعد لحظات، وهذا ما حدث.. ابتسم «جوسيف» وهو يعود إلى الخلف بخطوات بطيئة، بدأ يعوي وجيشه يعوي خلفه، ينظر إليَّ «أطلنطس» بنظرات قلق ثم التفت وتقدم جيشه لخطوات، بدأت عصيهم جميعهم تضيئ من أطرافها، بدؤوا يرددون كلمات غريبة من حولي، فالجزء الأول من الجيش بدأت سيوفه تضيء ونورها يزداد وملابسهم أصبحت مختلفة وظهرت في أيديهم دروع من الضوء، والجيش الأوسط يحملون عصيًا تشبه العصي التي يحملها «أطلنطس» مع اختلاف الرسومات عليها، والرماة في الجزء الخلفي من الجيش يخرج من أعينهم لهب أزرق

ويمسكون بأسهم أطرافها مضيئة.. وفي الناحية الأخرى جيش الظلام، بأشكالهم المختلفة محاطون بالثعابين ويحملون في أيديهم سيوفًا مشتعلة، يصيحون وتزداد ملامح الغضب على وجوههم.

بدأ جيش «أطلنطس» يخبط عصيهم وسيوفهم على الأرض وبدأ الجزء الخلفي في ترديد المزيد من الكلمات، صاح «جوسيف» في الناحية الأخرى وبدأ يركض هو وجيشه اتجاه «أطلنطس»، فعاد هو والجزء الأول من جيشه خطوات إلى الخلف، ثم بدأ يزداد اللهب في أعين الرماة وبدؤوا بترديد كلمات بصوت أعلى فبدأت نيران زرقاء تحيط بهم فأمسكوا بأسهمهم وأشعلوا أطرافها من النيران المحيطة بهم وبدؤوا يطلقونها، الأسهم تسقط فوق جنود من جيش «جوسيف» يصرخ من أصيب بالأسهم في ألم ثم ينفجر بعد لحظات، لم يتوقف جيش «جوسيف» بل تقدم بسرعة أكبر فالخوف لا يعلم طريق لقلوبهم.

وقف الجزء الأمامي وركع على الأرض مختبئين وراء دروعهم، اصطدم جيش «جوسيف» بالدروع يحاولون أن يدمروها ولكنهم يفشلون، يصرخون ويضربون الدروع بقوة وما زال الجزء الأمامي محافظًا على ثباته، تقدم الجزء الأوسط ووقف خلف الجزء

الأول وأخرجوا حوافًا حديدية من عصيهم ثم بدؤوا في ضرب جيش «جوسيف» بين الدروع، ما زالت الأسهم تنهال فوقهم، تقدم «جوسيف» وازداد لهب سيفه لأضعاف وبضربة واحدة كانت كافية لينهار جزء من الدروع وفتح مسار لجيشه ما بين الدروع، «أطلنطس» يقتل و«جوسيف» يقتل، «أطلنطس» يذبح و«جوسيف» يذبح، جيش «أطلنطس» منظم وجيش «جوسيف» وحوش هائجة، يعوون.. يذبحون.. يأكلون.. ما زال الرماة يطلقون الأسهم حتى أصبحت الحرب قريبة منهم فألقوا بالأقواس وحملوا سيوفهم ولكن.. بدأ كل شيء يتحول إلى ظلام حولي وبدأت كائنات غريبة عجوز تظهر فوق الجدران تخرج من الظلام، ليس لها ملامح فهي مجرد شيء مظلم في هيئة جسد عجوز، بدأت تقفز على الرماة، أصبحت الدماء في كل مكان.. عاد الجيش الأوسط للخلف قليلًا وبدأ في قتل تلك الكائنات المظلمة وفي نفس الوقت كان الجزء الأمامي في معركة دموية مع جيش «أطلنطس».. تمنيت لو وجدت نفسي في مكان أوسع أفضل من أن أكون وسط حرب بداخل تلك الحارة، قد يموت نصف الأشخاص بها بسبب نقص الأكسجين.

بدأت الصيحات هنا وهناك وصرخات وكلمات بلغة

غريبة تترد من هنا، وسيوف مشتعلة وأجساد ضخمة ونيران في الناحية الأخرى.. دماء تسيل من هنا ومادة خضراء مشتعلة تسيل من هناك.. واحد، اثنان، ثلاثة، عشرون، خمسون.. أصبحت الجثث تتساقط كالأمطار، تقتحم سيوف جيش «جوسيف» أمعاء جيوش «أطلنطس» وتتطاير حولي، سقط الكثير من الجيشين فأصبحت بين تلال من الجثث، والعواء ما زال مستمرًا لا يتوقف.

انضم إلى الحرب أشخاص جدد مجردون من الأسلحة ولكن محاطون بكائنات صغيرة تطير حولهم لمساندة جيش «أطلنطس» فبدؤوا في ترديد كلمات فبدأت النباتات تخرج من الأرض وتكبل رجال «جوسيف» أرضًا لينهي حياتهم رجال «أطلنطس»، أصبح جيش «جوسيف» قليلًا فعاد خطوات إلى الخلف، ظننت أنه ينسحب لوهلة ولكنه بدأ يعوي بقوة كالذئاب.. هذا الكائن اللعين! ظهرت بوابة من الظلام خلفه وبدأ يخرج منها كائنات أخرى تمسك سلسلة وعلى طرفها وحوش غاضبة يسيل اللعاب من أفواهها ثم أطلقوا سراحها وبدأت في الركض بسرعة اتجاهنا، ثم بدأت كائنات الظلام تظهر على الجدران من جديد وقفزت خلفنا فأصبحنا محاصرين، جيش «أطلنطس»

مرهق وأصبحنا محاطين ببركة من الدماء المشتعلة.

بدأت الكائنات المحيطة بالسحرة تتغير أشكالها وتحولت إلى كائنات ضخمة، فعاد السحرة خطوات إلى الخلف ليتركوا كائناتهم هذه المرة تتولى الحرب مع الوحوش الأخرى، ولكن لم تستغرق هذه الحرب سوى دقائق لتسقط جميع كائنات السحرة أرضًا، لم يستسلم جيش «أطلنطس» وبدأت السيوف تخترق أمعاء تلك الوحوش والنباتات ما زالت تكبل بعضهم أرضًا، وكائنات الظلام في ازدياد مستمر، يقاتل «أطلنطس» بشراسة، يخترق سلاحه أمعائهم ونظرات القلق تزداد على وجهه، و«جوسيف» يستمتع بقتل الرجال، يتذوق دمائهم وهو مبتسم، فسيفه كان قادرًا على هدم دروع من الضربة الأولى.

الأمر لم يبشر بخير، بدأت أتحرك للخلف ببطء، هدأت الأجواء من حولي فقد سقط كل جيش «أطلنطس»، ولم يتبقَّ سواه وسط صريخ الجرحى وتحول الصريخ إلى صمت عندما بدأت الكائنات في التهامهم، لقد انتصروا ولا توجد معجزة الآن.. «أطلنطس» ما زال واقفًا لا يريد الاستسلام، يقترب «جوسيف» منه ببطء، أصبح قريبًا كفاية ليلوح «أطلنطس» بعصاه فيجرح وجه «جوسيف»، فغضب

«جوسيف» وحمل «أطلنطس» من رقبته لثوانٍ ثم ألقاه أرضًا واقترب منه مجددًا وأمسك برأسه فأصبح «أطلنطس» راكعًا، فابتسم «جوسيف» وهو يهمس:

- كان من ممكن أن تعطينا البشري في هدوء.. الوداع يا صديقي.

نظر إليَّ «أطلنطس» بحزن وفي لحظة كانت رأس «أطلنطس» على الأرض، نظر إليَّ «جوسيف» وهو ينظف سيفه ثم بدأ السير اتجاهي فوق تلال من الجثث، خمسون خطوة.. تسع وأربعون.. خطوتان.. ثم الظلام بعد صفعة واحدة من أحدهم.

يقولون إن الحياة عبارة عن قوانين كثيرة معقدة ولكن معظمها قابل للتجاهل، قابل للاختراق.. وعندما تصل إلى القوانين المتصلة بالعوالم الأخرى فحينها ستكون فقدت القدرة على تجاهل تلك القوانين، وإذا تجاهلتها فأنت الآن وسط عالمهم.. هم حولك على كل الأحوال ولكن عوالمنا منفصلة، فالحياة رحلة قصيرة فما الداعي من المخاطرة؟! ولكن سأخبركم بسر، حتى وإن فقدت معظم روحي وأصبحت وسط أحداث غير مفهومة، واستيقظت في أزمنة مختلفة وكائنات غريبة فأصبحت أعيش بداخل كابوس طويل، ولكن للأسف إنه ليس كابوسًا، أتمنى لو كان، فالأمر معقد.. بدأ الأمر

بالفضول في رؤية حقيقتي، الفضول في معرفة ما الذي مرت به روحي من قبلي، ولكن لفعل ذلك كان عليّ التنقل إلى زمن قد مضى، بدون أي تدخل تكنولوجي وهذا هو الخطر في الأمر، «راهوت» اخترق القوانين ولم يكن مسموحًا له بأن يفعل ذلك، ولكنه بالتأكيد كان لديه نفس الفضول.

أتذكر عندما قال لي أبي إن الروح الصافية قد تفعل الكثير، لم أفهم قصده حينها ولكن أفهم قصده الآن، قد تفعل الكثير في ما وراء الطبيعة، لأنك لست سوى أنت في العالم الحقيقي، إن كنت محاميًا أو محاسبًا أو مهما كنت فأنت لست سوى أنت وسينتهي بك الحال وأنت مجرد من كل شيء وسينساك الزمن.. ولكن في حالة ما وراء الطبيعة يختلف الأمر كثيرًا، فقد تعيش للأبد هاربًا بين الأزمنة المختلفة من قبضات تلك الكائنات المختبئة، فقد تجد جحرًا في وسط الصحراء جاهلًا بأن عالمهم أسفلك، في أي لحظة ستجدهم يسحبونك للأسفل لتعيش أسفل تلك الأسقف المشتعلة والجدران المشققة، ولتعيش وسط الثعابين التي تحوم حولك وبجلدهم الخشن الغريب قد يجرحونك بمجرد لمسهم لك، قد تكون محظوظًا لو قتلوك ونصف محظوظ لو جعلوك خادمًا لهم وتعيسًا لو أصبحت خادمًا من النوع

الآخر فيستخدمونك كوسيلة لإنتاج أطفال نصف بشرية.

(16)

استيقظت لأجد نفسي أسفل الأسقف المشتعلة.. نعم، تلك الأسقف اللعينة والجدران المشققة والثعابين التي تحوم حولي، لقد تم سحبي إلى جحورهم.. أين أنا؟ من أنا؟ ماذا أفعل هنا؟ تساؤلات دون إجابه، فكيف انتقلت من شخص فضولي لشخص بداخل كهف لعين مشتعل وكائنات قذرة حولي؟ تلك الثعابين أقسم بأنها كادت أن تتكلم أكثر من مرة! أجلس بركن ويداي مكبلتان بحديد سميك ورقبتي بداخل سلسلة حديدية، لم أفهم ما كان قصدها عندما أخبرتني بأنني بوابة أو أنهم سيستخدموني لشيء ما لا أفهمه، ليعودوا إلى الماضي؟ ولكن ما الفائدة من الماضي ونحن الآن فيما بعد؟

اقترب مني طفلان يزحفان على الأرض، شكلهما بشري أكثر من أي شيء قد رأيته وكأنهما من عالم البشر فعلًا، ولكن ماذا يفعلان هنا، اقتربا مني ووضعا رأسهما على فخذي وغاصا في نوم عميق وكأنهما يعلمان بأنني منهما، ولكن كيف أحضروهما إلى هنا؟ لم أصرخ حتى لا أقلقهما من نومهما العميق ولكنني اكتفيت بأن أنظر حولي لأرى أين أنا، يشبه كثيرًا ما رأيته سابقًا في حلم من أحلامي، ولكنهم أخبروني أنه

حقيقي، فكيف أتيت إلى هنا؟ ولكنني لم أكن هنا من قبل، وكأن روحي هي من دخلت إلى هنا، إلى عالمهم.. ازدادت خلايا مخي الضِعف والمزيد من الدم يتم ضخه بسرعة كبيرة إلى عروقي فأفكاري ترهقني، أستطيع الشعور بدمائي تسير بداخل أوردتي، بداخل عيني ومخي حتى فروة رأسي تزداد حرارتها، صداع نصفي وقطرات عرق على وشك أن تسقط على الطفلين حاولت أن أمنعها ولكن الحرارة تزداد والتوتر يزداد وبدأت الأفكار والتساؤلات تتدفق داخل رأسي.

«أين أنا؟ من أنا؟ ماذا أفعل هنا؟ ما تلك الكائنات؟ هل سأموت؟ لا إنهم يحتاجونني.. لا سيقتلونني ويذهبوا إلى الماضي.. الماضي؟ نعم، الماضي يا «خالد»، ولكن ماذا سيفعلون هناك؟! قطي المسكين، وماذا عن «مريم»؟ من يُطعم القطة.. هل اشتاقت لي؟ القطة أم الفتاة؟ لا أعلم.. الاثنتان؟»

تزداد الأفكار في عقلي، لم أستطع السيطرة عليها، حسنًا سيطرت عليها قليلًا ولكن الطفلين كانا غارقين بقطرات عرقي بالفعل، استيقظا ببطء، تلك الكائنات الجميلة البريئة، أنا آسف يا أطفال.. ولكنهما ليسا طفلين، أو هم طفلان ولكن ليسا كائنات بريئة، نظرا إليّ بغضب واشتعلت أعينهم قليلًا.. حسنًا لقد اشتعلت

كثيرًا ويزداد الغضب على وجوههما، ارتعبت لأنني على وشك أن يتم التهامي من طفلين.. ليسا طفلين.. أو هم طفلان ولكن ليسا من البشر، فهم من أنصاف البشر.. توقف الطفلان فور قدوم فتاة في منتصف الثلاثينيات، هي أيضًا تشبه البشر كثيرًا لا تحمل ملامح تلك الكائنات — أتكلم عن أعينهم المشتعلة — أو قد تكون مثلهم فلم أعد واثقًا، قد تكون من البشر ويستخدمونها كخادمة.. لم تنظر إليّ ولا نظرة واحدة ويبدو التوتر عليها، فناديت عليها ولكنها لم تجِب، اكتفت بالنظر إليّ ثم حملت الطفلين ورتبت ملابسهما، فناديت عليها مجددًا، «أين أنا؟!» فنظرت إليّ نظرة سريعة ورحلت، فتأكدت من أنها مجرد خادمة هنا في عالمهم، لا يتركون الخدم يتحركون بحرية لأن البشر خطر قد يدمرون عالمهم إذا أرادوا، ولكنهم تركوها، لعلهم يدركون أنها من البشر الضعيف ولا يمكنها أن تفعل شيئًا سوى الطاعة. مرت دقائق، الكثير منها لا أعلم كم بالضبط..

دخل عليّ شخصان يشبهان تلك الكائنات التي أخذتني في الحارة، فكا قدمي ويدي وتركوا تلك السلسلة في رقبتي، نهضت من مكاني ويسحباني منها ككلبهما اللعين، نسير بداخل الكهوف، ندخل من غرفة

إلى غرفة وكلها متشابهة، نفس الأسقف والجدران المشققة والثعابين، ولكن تزداد الرائحة قذارة كلما مشينا، أدخلاني غرفة أخيرة مظلمة تبدو مختلفة، فالأسقف مختلفة والجدران ليست مشققة ولا توجد ثعابين، ثم تركاني بها وأغلقا جدارًا صخريًا خلفهما.. ثم مرت دقائق أخرى ولكن ليس الكثير قبل أن تدخل فتاة لا يمكنني رؤية ملامحها بوضوح، جلست أمامي بمنطقة مظلمة فملامحها لم تكن واضحة كفاية، ثم قالت:

- أنت أصبحت بداخل كهوفنا المظلمة.

- ماذا تريدون مني؟!

فضحكت ضحكة خفيفة وهي تقول:

- شيء بسيط.. روحك.

- بسيط؟ ولماذا روحي؟ ولماذا أنا؟

- أظن أنهم أخبروك بكل شيء يا «خالد» وأصبحت تعلم كل شيء.

- ومتى ستأخذون روحي؟

- لن نأخذ روحك.. سنستغلها فقط لنستمتع بنسمات الماضي ولم يحدَّد ميعاد بعد، فاستمتع بما تبقى لك من وقت.

نهضت من مكانها وخبطت على الجدار الصخري

ليفتحوا لها وخرجت وتركتني بتلك الغرفة، لا أفهم ماذا سيفعلون بي أو ماذا قصدت بأنها تريد روحي.. دخل شخصان آخران سحباني من السلسلة لأسير خلفهما كحيوانهما الأليف ثم أدخلاني غرفة مليئة بالكثير مثلي، مليئة ببشر بسلاسل حديدية، أعتقد أن معظمهم قد تجدهم في إعلانات البحث عن المفقودين معلقة في الشوارع والتلفاز في عالمهم، ولكن كيف انتهى بهم الحال هنا؟ سلمني الحراس لشخصين وأعطياني ملابس خضراء وطلبا مني خلع ملابسي فخلعتها ثم أشارا إليّ حوض استحمام.. حقًّا، نحن في أكثر الأماكن قذارة وتريدان مني الاستحمام؟! ولكنهما لم يكونا متفاهمين لأنهما دفعاني بداخل حوض الاستحمام على أي حال، ينظران إليّ منتظرين أن أنتهي فأشرت إليهم أن ينظروا الناحية الأخرى ولكنهما لم يهتما برغبتي ولكن استسلما عند إصراري على ذلك، انتهيت من الاستحمام وارتديت ملابس البشر الخضراء فأصبحت مثلهم الآن، أخذونا من عالمنا وأصبحت هنا محاصرًا بالبشر، لم أكن متأكدًا من أنهم بشر مثلي حتى رأيت ملامح القلق والخوف على وجوههم.

(17)

مرت أيام، قد تكون أسابيع أو أشهرًا، وقد تكون سنوات لا أعلم، فلم أعد أحصي فالأيام كلها متشابهة، يسحبونني بتلك السلسلة لأحمل الصخور وأساعد في بناء المزيد من الغرف بجدران مشققة للثعابين كما يطلبون، وأغسل الملابس وأحمّي الأطفال وأغير ملابسهم ورائحتهم أسوأ بمراحل من رائحة البشر، فكرت في إنهاء حياتي أكثر من مرة ولكنهم لا يتركون لنا أي أدوات حادة حتى لا نستخدمها في غرض مثل ذلك، يراقبوننا طوال الوقت ويزداد عددهم وتزداد أطفالهم، ينضجون سريعًا.. ولا يتكلم البشر بعضهم مع بعض فهي من القوانين الممنوع تجاوزها.. القوانين، اللعنة على القوانين وعلى من يخالف القوانين، انظروا أين أوصلتني تلك القوانين اللعينة! حان وقت الغذاء وهو وقت الراحة الوحيد، أصبحت متأقلمًا إلى حد ما على الوضع فتعلمت أن أبتلع الطعام وعدم تذوقه وأن أترك أمعائي تتعذب قليلًا أفضل من أن تتعذب حاسة التذوق وأمعائي معًا، أتمنى لو ينهوا ما يريدونه مني ولكنني لم أفهم ماذا ينتظرون.

دخلنا غرفة كبيرة لنأكل ففي فترة الغذاء تكون سلاسلنا حرة، يتركوننا نتحرك في أرجاء الغرفة بحرية

دون رقابة مشددة نظرًا لكثرة عددنا ويكتفون بالوقوف عند الأبواب، البعض منا يعيشون لخدمة المسؤولين ويرعون أولادهم ولا يرعون سوى تلك العائلة فقط، مثل الفتاة التي رأيتها عند وصولي هنا فهي ترعى الطفلين وعائلتهم فقط فلا نراها تأكل معنا أو في أي أنشطة من أنشطتنا، ولم أرها منذ فترة طويلة، على أي حال مثلها مثل الكثير.. في الرواق الخارجي يوجد باب كبير مطرز بالذهب يثير فضولي.. فضولي نعم، وحين أذكر فضولي فأنا أعلم بأن النهاية لن تكون جيدة، ولكن الأمر ليس بيدي فأنا دائمًا ما أتبع فضولي.. تحركت في حركات دائرية في وسط غرفة الطعام وأصبحت الأفكار تتردد في رأسي، هل أحاول الهروب وأرى ما خلف ذلك الباب؟ ولكن الأمر خطر، ماذا لو رأوك؟ ماذا سيفعلون؟! لا شيء! فهم يحتاجونني، على الأقل لعلهم يسرعون في قتلي إذا رأوني، نعم، إنها فكرة جيدة.

اقتربت من الأبواب وجلست بقرب أكثر الأبواب قربًا من الرواق، انتظرت انشغال الحارس بجمعنا ثم خرجت من الباب مسرعًا، وقت الغذاء هو أكثر الأوقات هدوءًا في المكان فتجد معظم الأماكن فارغة من الحرس والأشخاص فالجميع يأكل في غرفهم الخاصة، سرت للأمام قليلًا حتى وصلت إلى الباب فوقفت أمامه،

ذهب لامع ورسومات من عصور مختلفة.

فتحت الباب ودخلت بهدوء لأشعر بأنني خرجت من عالمهم، فتلك الغرفة طرازها مختلف، جدرانها مزينة وأسقفها جميلة وبيضاء بالكامل وسجادة حمراء طويلة تصل إلى باب آخر مزين بالمزيد من الذهب، وعلى ناحيتي اليمنى جدار مزين بلوحات ورسومات قديمة والناحية الأخرى حروف فرعونية ورسومات أخرى قديمة كمقبرة فرعونية، سرت للأمام قليلًا حتى وصلت إلى الباب الآخر وتوقفت أمامه للحظات ثم فتحته لأجد نفسي بغرفة ضخمة، بدأت السير بداخلها مذهولًا ولكن ما أثار الدهشة والرعب بداخلي هي تلك الأنابيب الضخمة الممتلئة بسائل أزرق وبها أطفال متصل بأفواههم أنبوب متصل بأنبوبة أكسجين خارج الأنبوبة، والمزيد منها.. أكثر من ألف أنبوبة ومثلها في الصف الخلفي، أربع صفوف والآلاف من الأطفال بداخل تلك الأنابيب، لم أرَ ذلك في الحلم فأنا الآن أصبحت أكثر خطرًا.. أكملت السير إلى الأمام أتأمل الأطفال بملامحهم المختلفة وعروق وأصول مختلفة، انتهت الأنابيب برواق صغير يتصل بغرفة أخرى، فأنهيته لأصل إلى غرفة أخرى أثارت أضعاف الرعب والذهول بداخلي.

أرى مئات من السيدات يجلسن على جوانب الغرفة يضعن الأطفال بين أحضانهن ويرضعنهم، إنهن بشر. بكاء الأطفال العالي، نظرت السيدات إليَّ بذهول وسمعتهن يتساءلن ماذا أفعل هنا، نظرات القلق تزداد على وجوههن وأنا أسير وسطهن محاولًا إدراك ما الذي أراه، ثم رأيت تلك الفتاة التي رأيتها عندما وصلت إلى هنا جالسة وسطهن ترضع طفلًا، فنظرت إليَّ بتوتر وتنظر اتجاه الباب ثم همست لي:

- ما الذي أتي بك إلى هنا!

يزداد توترها وتزداد نظراتها إلى الباب ثم قالت:

- سيأتون في أي لحظة الآن، يجب أن تختبئ.

نظرت إليها وما زالت ملامح الذهول على وجهي فأدركت بأني غير قادر على استيعاب ما أراه، انفتحت الأبواب وبدأ الحراس يدخلون فانفجرت ملامح التوتر في وجهها فسحبتني وخبأتني وراءها، فدخل الحرس وبدؤوا يمرون على الصفوف ليروا أن كل شيء على ما يرام، جميع السيدات بدون سلاسل على رقبتهن فهن ملك للعائلات ولا يشكلن خطرًا فيتركوهن بحرية ويكتفون بحراسة الأبواب الخارجية من المتطفلين مثلي، أختبئ بأسفل كرسيها ويمرون بصورة سريعة قبل أن يرحلوا مجددًا فأشارت إليَّ بالخروج ثم همست

في غضب:

- أنت لا تعلم خطورة وجودك هنا!

- كان لديَّ فضول لأرى المكان.

- ومتي ستتوقف عن متابعة فضولك؟!

- ماذا تقصدين؟

تنظر السيدات إلينا فهمست لي:

- يجب أن تخرج من هنا، لأنك الوحيد من يمكنه أن ينقذنا جميعًا!

- أنقذكم؟ وهل تحتاجون إلى إنقاذ؟

يبدو أنني أشعلت نيرانًا بداخلها فانفعلت في وجهي:

- هل تعتقد أننا مبسوطات وبداخل أحضاننا وحوش تتغذى على أجسادنا؟

يعلو صوتها تدريجيًا فبدأ الجميع ينظر بملامح التوتر وخوف من أن يتم كشفي، فعادت إلى رشدها سريعًا فوضعت يدي على فمها حتى هدأت ثم أخبرتها:

- أنا آسف لم أقصد، ولكن كيف سأنقذكن؟

- لقد قال أحدهم إنه يوجد بك شيء غريب لا أعلم ما هو بالضبط، ولكن ما فهمته أنك خطر ولكنك لا تدرك ذلك.

تذكرت عندما أخبرتني تلك الفتاة الغريبة في الحارة

عن القدرات التي انتقلت إليّ، ولكن إذا انتقلت أي قدرات إليّ لشعرت بذلك على الأقل ولكن لم أفعل، وحتى إن انتقل أي شيء لي فأنا لا أعلم حتى كيف أستخدمها، فأنا لست خطرًا أنا لا شيء.. ثم أجبتها:

- أنا؟ خطر؟ مستحيل..

- لا أعلم، هذا ما سمعته.. على العموم يجب أن تخرج من هنا، وإلا سيدركون أننا تكلمنا معك وقد يموت الكثير منا!

- كيف؟ وماذا عن الحراس الواقفين بالخارج؟

- سنخرج بعد قليل، وأنت يمكنك أنت تخرج وسطنا.

كانت ترتدي وشاحًا على كتفها فخلعته ومدته لي ولكنها كشفت القليل عندما خلعته فنظرتُ الناحية الأخرى خجلًا مما أثار الخجل بداخلها فوضعت الوشاح في مكانه مجددًا.

- سأعطيه لك في طريقنا للخروج.

مرت الدقائق وبدأت السيدات يصطففن في أماكنهن فأعطتني الوشاح ووضعته على رأسي العارية ثم بدأت أسير وسطهن بخطوات بطيئة، لمسات عشوائية من الحراس للسيدات ولكن ماذا بإمكانهن أن يفعلن سوى الصمت وكتم الغضب بداخلهن فهذا ليس عالمهن وليس عالم أحد، ما زلنا نسير بداخل تلك الممرات

ولكن هذه المرة لاحظت رسومات جديدة وعلامات جديدة، لغة مكونة من الحروف العجيبة، لقد رأيتها من قبل.. خرجنا من الباب وأعطيتها الوشاح وبدأت في التحرك ببطء اتجاه صفوف الرجال على الناحية الأخرى ولكن رآني الحراس فأمسكوا بي وألقوني بتلك الحجرة المتعفنة من جديد. بعد أيام لا تُحصى عدت إلى البداية ودخلت تلك الفتاة، التي دخلت في الظلام عند وصولي إلى هنا، وجلست أمامي فأخذَت نفسًا عميقًا قبل أن تسألني:

- ماذا رأيت؟

- ماذا تفعلون بالأطفال؟

الظلام حالك ولا يمكنني رؤية ملامحها إن كانت غاضبة أم متفاجئة أم لا شيء على الإطلاق، ولكن صمتها الطويل أخبرني كل شيء، أنها أدركت أنني توغلت إلى عالمهم أكثر وأنني رأيت أكثر مما ينبغي، فابتسمت لي وهي تنهض قائلة:

- علي العموم وجودك لم يعد مهمًا والبداية ستكون الليلة.

- البداية لماذا؟

- إننا نسترجع أرضنا.. العالم كان ملكنا وأنتم أخذتموه منا وحاربتمونا، وأنت من سيساعدنا

لاسترجاع حقنا.. ستساعدنا لنبدأ النهاية.

دخلت الكلمات في عقلي كالسيوف، أصبح عقلي يتخبط في جدران رأسي كمباراة تنس ولكن لن يفوز أحد لأنني في مباراة فردية، أنا ضد نفسي.. انتهت مباراة التنس المملة مع اقتراب أصوات الاحتفالات والغناء الرديء وازدياد صوت بكاء الأطفال، خرجوا الجميع من كهوفهم المتعفنة واجتمعوا بالخارج، بدؤوا يشعلون النيران واختفى الظلام فأصبحت ملامحهم أكثر وضوحًا، ثم دخل حارسان من الباب يحملاني كسمكة صغيرة، توجد طاولة عريضة في منتصف غرفة جديدة كبيرة مزينة بجُمل قديمة عبرية، ويرقص الأطفال وتبتسم الشياطين وتسيل الدموع على وجه البشر، كانوا يأملون بأن أنقذهم، يا لهم من أغبياء! كيف أنقذهم وأنا أخاف من ظلالي أحيانًا..

ألقاني الحارسان على الطاولة وكبلاني أسفل تلك الأسقف المزينة بالكلمات التي لا يمكنني قراءتها ولكن رأيتها من قبل، لا أعلم أين ولكنني أتذكرها بالحروف نفسها والترتيب نفسه والرسومات والأشكال نفسها، ويقف رجل ويمسك بكرة بالنيران المتداخلة نفسها.. نعم تذكرت، إنها العوالم المتداخلة، تشبه كثيرًا تلك النيران بالكرة التي كان يحملها «راهوت»، الحروف

نفسها التي كان يقرؤها بسهولة.. بعد لحظات بدؤوا يحومون حولي ليبدون للحظة أنهم يلعبون الكراسي الموسيقية على من سينهي حياتي أولًا.. تقدم أحدهم يحمل عصا يترأسها جمجمة لكائن ما، عندما تتحلل الأجساد تجد صعوبة لتعلم إن كان ذلك الرأس يعود إلى إنسان أم قرد، قد يكون لدب صغير، فمن يهتم؟! فهو يحمل رأسًا متحللًا بأعلى عصاه على أي حال.. اقترب مني كثيرًا حتى أصبحت رائحة عطره العفنة بداخل أنفي، يهيئ ملابسه القديمة والقميص الجلدي وغطاء رأسه الغريب ويستعد لإلقاء خطاب، فصمت الجميع لينتبهوا إلى ما سيقوله، مئات من الأشخاص الواقفين ويقف كبار العائلات متباهين، نظرات الفخر على أعينهم والخادمات على الأرض بجانبهم يحملن أطفالهم الصغيرة.. تقدم قليلًا وبدأ يلقي خطبته:

- إنه يوم العودة يا قوم، لقد حان وقتنا، لنستعد ما فقدناه، قد حان الوقت لنعود، منذ زمن كان كل شيء لنا حتى أتى البشر وأخذوا كل شيء، أحرقونا أحياء وسخروا من أشكالنا ثم قتلوا أولادنا وأصبحنا بلا أرض ولا مأوى، فلم نجد سوى ذلك المكان المتعفن ليكون مخبئنا طوال تلك السنين، نستعد ونبني جيوشنا، أجدادنا لم يكونوا يشبهونا، أصبح البعض منا يشبه

البشر، لقد اختلطت دماء بعضنا بدماء البشر وأصبح البعض منا أنصاف بشر، ولكنهم ليسوا بشرًا ولن يكونوا، فعروقنا مليئة بالكراهية، وقد حان الوقت ليصبح كل شيء ملكنا من جديد.. أصبحت جيوشنا جاهزة ولم يعد أطفالنا متعلقين بأثداء البشر، لقد انتهوا منها والآن أصبحوا يأكلون اللحوم نيئة، وهذا ما سنفعله، سنأكل لحومهم نيئة، فاليوم سنلتهم كل الأزمنة.. اليوم حان الوقت لتنفتح بوابات «راهوت»!

قطع حديثه ضحكتي التلقائية فنظر إليّ بغضب واشمئزاز ويشعر بالإهانة من سخريتي، قطع حديثنا صوت أتى من جانبي الأيمن:

- ما الذي يضحكك؟

إنها تلك الفتاة التي أتت لي في الظلام مرتين، أرى ملامحها بوضوح الآن، فهي أجمل بكثير من أن تكون بهذا العالم القذر، فملامحها بارزة وعيناها لامعتان وشعرها أسود مسترسل واصل إلى أسفل ظهرها.. ماذا يحدث؟ هل هذا حلم؟ ولكن لا تدوم الأحلام لسنوات.. هل فقدت الوعي في أحد المستشفيات وأنا الآن في عالم الظلام وسأعود قريبًا؟ عادت مباراة التنس ولكن أصبحت الكرة مشتعلة ثم أبدلوا الكرة بنيزك، فأصبحت جدران رأسي تحترق.. يجسّد الشر أحيانًا في ثوب

الجمال كسكين مزخرف برسومات فنية عظيمة، قد يكون سكينًا في منتصف صدرك ولكنك ما ستفعله هو أنك ستحاول الاستمتاع بالنظر وتأمل تلك الرسومات بدلًا من أن تصرخ وتتألم، ستتقبل نهايتك حينها في صمت وستزيدها متعة بالنظر إلى تلك الرسومات، الجمال أحيانًا قد يهون النهايات، مثلها بالضبط.. فنظرت إليها مطولًا، عندما يجسَّد الشر في جينات خاطفة للقلوب ورائحة عطرة في مكان لا يعلم أي شيء عن الجمال، فنظرة منها قد تحول أقوى محاربي الشر إلى أكثر محبين للشر بسبب تلك العينين المشرقتين اللتين تنعكس النيران بهما، أراها واقفة مرتدية فستانًا أسود طويلًا وكأنها تحاول أن تسخر من القدر والزمن أو تسخر مني ومن غبائي.. اقتليني يا سيدة، فمن يهتم؟! اقتليني واجعلي نهايتي بسكين مزخرف بمنتصف صدري، فمن يهتم؟! ثم لاحظت شخصًا ضخم البنية ظهر من الظلام وهو يضحك ثم اقترب منها وقبلها، إنه ذلك الكائن اللعين الذي قتل «أطلنطس» وخطفني، نظر إليّ قائلًا:

- سعيد لرؤيتك من جديد.

ثم اقتربت الفتاة مني هامسة:

- جاهز؟

فرددت بداخل عقلي، أأنا جاهز لتداعبي روحي بجمالك؟ ربما.. ثم أكملت هي كلامها:

- أنت البداية، وأنت ستكون النهاية.

ثم عاد العجوز من جديد للكلام:

- ابنتي العزيزة، حان الوقت لنتخلص من ذلك الأحمق، وعندما ننتهي من مهمتنا لنتخلص من باقي البشر فقد مللنا منهم، وسنجد بشرًا أفضل وأكثر ذكاء بالخارج، فهؤلاء لم يعيشوا وسط الظلام والنور سيعميهم بالتأكيد، هؤلاء عاشروا الجهل، والعلم قد يهلك خلايا مخهم.

زادت الدموع في أعين البشر الواقفين، فلم يكن بكاؤهم لأنني على وشك الموت فقط الآن ولكن أصبح على أنفسهم أيضًا، فقد خدموهم لسنوات وتعفنت عقولهم في تلك الكهوف، وتورمت أثداء النساء وانقطع حليبهن، وأهلك الرجال مفاصلهم عملًا يحملون ويبنون، والآن يعلمون أنهم سيموتون.. ابتسم بعضهم لأنهم كانوا فاقدين الأمل والموت بالنسبة لهم رحمة، وزادت ابتسامتهم، وبعض البشر يقولون بداخل أنفسهم لتنتهوا من المهمة سريعًا واقتلونا من فضلكم لقد حان الوقت لنرحل عن ذلك العالم المسخ.. ثم لمحتها بين الحشد تبتسم لي ابتسامة النهاية. ازدادت الموسيقى وبدؤوا

يحومون حولي بطريقة أسرع وتقدم رجل يحمل عصا وكرة النيران التي تشبه كرة «راهوت» يحملها بيده الأخرى، وضع يده على رأسي وبدأ في تلاوة الكلمات الغريبة، وكرة النيران أنظر إليها عن كثب، تتداخل العوالم من جديد، ابتداء من المباني الأثرية إلى المباني الحديثة، ومن العواصف الثلجية إلى العواصف الرملية، كل زمن وكل مكان، وتزداد الموسيقى وتبدأ أعضائي الداخلية في الاحتراق ثم شعور غريب بدأ بداخلي وأتألم بشدة، فتلك الكلمات ليست خدعة، يبتعد الجميع عني وتبدأ الطاولة بالاشتعال ببطء، أستطيع الشعور بالحرارة وأصرخ ثم بدأت العوالم بداخل الكرة تتغير بطريقة أسرع، ثلج، نيران.. ثلج، نيران، رمال.. ثم هي، أو هو.. أراه جالسًا بتلك الغرفة مبتسمًا لي قائلًا:

- هل ستخاطر بعالمك يا «خالد»؟ هل ستعبث بالزمن؟

- نعم يا «راهوت»، أرسلني إلى رحلة جديدة.

فابتسم لي ثم تغيرت الرؤية بداخل الكرة لأرى عالمي، إنه أنا بداخل الكرة، لقد فقدت الإدراك لثوانٍ بداخل الكرة لأجد نفسي في غرفتي جالسًا على سريري وقطي بداخل أحضاني، أنظر حولي في حيرة

لا أتذكر ذلك وأنا واقف بجانبهم وكأني شخص ثالث معهم في الغرفة ولكنهم لا يدركون هذا، هل تشعر بذلك أيها القط؟ هل يوجد أحد معنا؟ أنت وحدك من يمكنه رؤية ما لا يمكنني أن أراه.. ثم تجمد كل من في الغرفة ونظر إليّ القط وفجأة تحول إلى أبي.. وقف وابتسم لي وقال:

- أنت يا «خالد» أفضل مما تتخيل.. أنت ابني وورثت عني روحي، فلا تهدرها عبثًا، أنا حولك دائمًا.. لقد أخبرتك بذلك.

ثم بدأت تتغير المشاهد مسرعة، وأنا ما زلت تائهًا بين العوالم بداخل الكرة وما زالت الحرارة تحرق جسدي، تغيرت المشاهد بداخل الكرة لأجد نفسي مكبلًا بجانب «راهوت» يطعنونه ببطء وهم يقولون، «نريد البوابات يا «راهوت»!» هو يصرخ في ألم وأنا أصرخ خوفًا والجميع يصرخ رعبًا، وما زالت النيران تلتهمني ولكنني لم أعد أشعر بشيء فأنا فقدت نفسي للحظات بداخل تلك الكرة، أرى «راهوت» يصرخ وبدأ يخرج منه الشعاع يحرق جسدي.. نعم أتذكر الآن! بعد أن قطعوا رأسه انفجر الشعاع واحترق الجميع إلا أنا.. ثم نهضت من مكاني ركضت في الشارع كالمجنون، تشتعل قدمي وتحترق عيني، دخلت المنزل أتألم

وأصرخ ولون عيني المتغير والكلمات التي أسمعها في أذني، بدأت الذكريات تتدفق سريعًا داخل عقلي، إنها نفس الكلمات التي يقرؤها ذلك العجوز، ثم رأيت «راهوت» مجددًا يقول لي:

- اقرأ يا «خالد»، لقد حان الوقت، فكل قواي أصبحت بداخلك.

كل قواك أصبحت بداخلي؟ لم أفهم ماذا يقول ولكن بدأت أرى الحروف بداخل الكرة وأصبح النيزك مضاعف الحجم وتزداد المباراة حماسًا و«خالد» يسدد ولكن أيضًا «خالد» يصد الضربة ببراعة، من سيفوز يا تُرى في تلك المباراة الفردية؟

أصبح جسدي بالكامل على الطاولة بداخل النيران وتزداد الموسيقى وبدأت بوابات غريبة تنفتح حولي، أزمنة مختلفة يمكن للأعمى أن يراها من خلال تلك البوابات، يضحكون بصوت عالٍ وتنفتح البوابات أكثر وتزداد الضحكات وينظرون إلى جسدي المحترق، أحاول أن أقرأ الحروف كالطفل الذي ينطق أحرفه الأولى، وازداد الألم وأصبح يحترق جسدي ولكن ليس من النيران، فالحروف تحرق حلقي، ما زال العجوز ينطق كلماته وتنفتح الأبواب أكثر.

روحي تنتفض وتخرج من جسدي، أصبح بالفعل

نصفها بالخارج تحاول أن تتمسك بجسدي، فأكملت الحروف أول كلمة ولم أعد أشعر بأحبالي الصوتية بعدها، ولكن حاولت جاهدًا حتى أكمل أول كلمه ليضيء المكان من حولي وتنصهر الأكبال التي كانت على يدي وتزداد النيران لأضعاف امتدت لثلاث ثم لأربع أضعاف وامتلأ جسدي بالعروق المشتعلة، أصبحت الحروف تتطاير في كل مكان أمامي، وقفت بداخل النيران ولكنهم لم يدركوا هذا فمن كثافتها ظنوا بأنني أحترق بداخلها وأنني قد مت بالفعل.. تزداد ضحكاتهم ويزداد بكاء البشر، ازداد الهمس من حولي:

- هيا يا «خالد»، لتنهِ جملتك الأولى لتنهار الكهوف فوق رؤوسهم، هيا اقرأ لننهي الظلام.

ولكن لا أقدر على فهمها فإنها ليست لغتي! فازداد الهمس:

- ولكنها أصبحت بداخلك فشعاع «راهوت» لم يكن إلا قدرك ولتكون نسخة أفضل منك.

من يتكلم؟ إنه أنا عقلك يا «خالد»، لقد فزت بمباراة التنس وحان الوقت لنفوز بتلك المباراة أيضًا، أنهِ الجملة، حاولت جاهدًا من جديد حتى أنهيتها ليحترق جسدي بالكامل وتعود روحي بداخلي وتنغلق الأبواب ببطء وتزداد العروق على جسدي وتشتعل الرسومات

على الجدران، ثم زاد حجم جسدي الضعف وانطفأت النيران بالكامل، فصمت الجميع وتوقف بكاء البشر ثم تحول لابتسامات، وتوقف الضحك ثم تحول لذهول، لا أعلم ماذا يحدث لي، فأنا أحلق فوق الطاولة ببعض السنتيمترات والجميع ينظر إليّ متعجبًا! الكثير من الكلمات أصبحت تتطاير بداخلي.. كلمات غريبة لا أعلم حتى كيف يمكنني كتابتها، ولكن يوجد بداخلي مَن يمكنه نطقها الآن.. اخترت كلمة عشوائية واحترق ذلك العجوز فصرخ الجميع وهرب البعض، رأيت الفتاة تقفز ويتبعها الكثير من جيشها بداخل بوابات عشوائية مختلفة، قد يكون البعض منهم ذهب إلى الفراعنة وسيبدأ الآن في بناء الأهرامات معهم أو يقتلونهم نظرًا لأشكالهم المختلفة، وقفز المئات من البشر أيضًا دون أن يدركوا ماذا يفعلون ولكن أي شيء بالنسبة لهم هو أفضل بكثير من هذا العالم فقفز الكثير.. وتزداد الكلمات وأصبحت مرتفعًا فوق الطاولة بأمتار أصرخ في ألم، ولم أعد أتحكم بما أقول فأصبح لساني يتكلم رغمًا عني، وتنهار الصخور وتشتعل الأسقف.. تجمدوا في أماكنهم، أهذه هي النهاية؟ بدأت الثعابين تخرج من جحورها لتلتف حول أنفسها وتصعد فوق أجساد بعضها بعضًا لتحاول أن تصل لي، ثم أخرج الحراس سيوفهم وأسهمهم وبدؤوا يطلقون.. فبدأ الهمس يزداد:

«اهرب.. اهرب يا فتى، وعد لاحقًا لتنهي ذلك الظلام للأبد.»

ولكن الجسد ليس لي فأنا فقدت السيطرة.. فازداد الهمس «الروح لك يا فتى.» تحترق الأسهم عندما تقترب مني وأفقد طاقتي وأصبحت الأمتار تقل ببطء والثعابين أصبحت أقرب، لست جاهزًا لأدمرهم.. طبيعي فمنذ لحظات لم أكن أعلم بقدراتي حتى.

«اهرب يا فتي فالحرب قاسية، ستلتهمك الثعابين أو تصيبك الأسهم، سيسود صمت الجبال إلى العالم وستنهار الجبال فوقنا، ولن يتبقى أحد.. اهرب يا فتي فالحرب ليست لصالحك الآن، لتحلق روحك فوق السماء ولتشعل كلماتك البراكين، اهرب يا فتى وسننهي الظلام لاحقًا.»

وبعد ثانية شعرت بأن جسدي بدأ يتحكم في نفسه فحلق بي لأعلى ورماني بداخل إحدى تلك البوابات ثم انغلقت من خلفي.

- بوابات «راهوت» -

كل شيء مظلم من حولي وشخص يقترب ببطء من بعيد يستند إلى عكاز حتى أصبح على بعد خطوات قليلة، إنه هو، «راهوت»! فنظر إليّ مبتسمًا وهو يقول:

- حان الوقت لتعلم مَن أنا..

أشار «راهوت» إليَّ باتجاه باب على يدي اليسرى وبدأ يتحرك اتجاهه، عندما وصلنا إليه فتح الباب وأشار إليَّ بالدخول، دخلت من الباب لأرى طفلًا جالسًا بغرفة صغيرة وعجيبة يحول ضفدعة أمامه إلى حيوانات مختلفة، نهض وبدأ في تحريك الأشياء بغرفته وهو يضحك، وبعد لحظات دخلت أمه وهي تصرخ وتأمره بأن يتوقف وأن السحر ممنوع في المنزل، فحزن الطفل وعندما خرجت من الغرفة بدأ الطفل في تحريك الأشياء ولكن بهدوء هذه المرة. بدأ «راهوت» يتحرك بداخل الغرفة وفتح لي بابًا آخر ودخلت منه لأجد الطفل أصبح مراهقًا، يجلس أعلى شجرة حزينًا والعصافير تقف على كتفه، لاحظ فتاة آتية من بعيد فنزل الشاب من فوق الشجرة وسار في اتجاهها وقبَّلها وبدآ يتكلمان ويضحكان بشدة، ثم أصبح كل شيء مظلمًا للحظات وعندما عاد كل شيء كان الولد جالسًا بجانب الفتاة يبكي والدماء تغطيها.

«راهوت» بدأ يسير مجددًا وفتح لي بابًا بداخل الشجرة، وعندما دخلت منه وجدت نفسي في كهف واسع ومظلم، وشابًا يقف وحوله كائنات صغيرة غريبة تساعده في كتابة شيء، فأشار إليَّ «راهوت» فاتبعته

لأرى مخططات لأشكال بوابات غريبة ورسومات لأرواح تصطف أمام البوابة، وبالناحية الأخرى من الرسمة صورة لأزمنة مختلفة، طلاسم ورموز غريبة، انتهى من الكتابة وجلس بداخل دائرة حمراء وبدأ في قراءة الرموز، بدأ كل شيء يهتز بقوة وبدأت بوابة صغيرة تنفتح فلم يتوقف عن القراءة، ولكن بعد لحظات انغلقت البوابة ففضب الشاب وبدأ في تدمير الأشياء، بدأ الزمن يتسارع ونحن ما زلنا في الغرفة ولكن ملامح الشاب تشيب تدريجيًا حتى أصبح رجلًا في منتصف الثلاثينيات وما زال يكتب الرموز والطلاسم، فعاد الزمن يسير بطريقة طبيعية من جديد.

نهض وأخذ نفسًا عميقًا وأمسك بورقة مكتوب بأعلاها «بوابات «راهوت»»، أخذ مسحوقًا أحمر من على الطاولة وصنع به دائرة وجرح كفه وبدأ يحيط الدائرة بدمائه وجلس بداخلها يقرأ الرموز من جديد، ثم كل شيء بدأ يهتز ولكن بقوة أكبر هذه المرة، وبدأت الرموز تضيء وبدأت بوابة صغيرة تنفتح ولكنها لم تنغلق هذه المرة، أصبحت بوابة كبيرة فنهض من مكانه وهو ينظر بداخل البوابة والدموع على عينيه فاقتربنا منها لنراه وهو مراهق يجلس مع الفتاة ويضحكان في ذلك اليوم الذي ماتت فيه، ثم أصبح كل شيء ظلامًا

بداخل البوابة وظهرت كائنات في الظلام غريبة قتلتها وهربت.. ثم فجأة رجع الرجل إلى الدائرة وقلب الصفحة وبدأ يتلو المزيد فبدأ كل شيء يهتز من جديد وبدأت بوابات أخرى تنفتح حوله بأزمنة مختلفة وأشكال مختلفة، فبعض البوابات ترى الثلج الساقط بها والبعض الآخر ترى صحراء جرداء، ثم توقف وهو محاط بالكثير من البوابات

فنهض من مكانه بابتسامة وأغلق بوابته التي كان يرى فيها نفسه مع الفتاة، ثم بدأ كل شيء يتحرك سريعًا من جديد وبدأ بعض الأشخاص يأتون له ليقرأ عليهم بعض التعاويذ أو ليشربوا أشياء ثم يفقدون الوعي وتبدأ أرواحهم في الخروج والدخول في إحدى البوابات عشوائيًا ثم تنهض أجسادهم وتبدأ في السير غير مدركة، وحين يستيقظون يجدون أجسادهم في أماكن عشوائية.. ثم توقف كل شيء ونظر إليَّ «راهوت» قائلًا:

- هذه هي حكايتي يا «خالد».. أنا من بدأ تلك البوابات، كنت أريد أن أعطي فرصة للأرواح أن ترى ماضيها، والبوابة الأخرى التي رأيت «أدريانا» بها هذه بوابات الماضي، ولم أستخدمها ولم أفتحها من جديد لأنها ليست بوابات الأرواح، هذه بوابات أخرى، يمكن

أن يستخدمها أي أحد ليعود إلى الماضي من خلالها، أنا خالفت الكثير من القوانين بسبب تلك البوابات، وأصبحت فريسة للعالم السفلي لأنهم يريدون تلك البوابات وقبيلتي رفضت عودتي إليهم، بوابات «راهوت» أصبحت قصة مرعبة يروونها للأطفال، وبالعالم السفلي كانوا يروونها كمحفز وكيف أنها فرصتهم ليعودوا إلى الماضي وينفذوا خطتهم.. هيا بنا لنكمل طريقنا.

عاد كل شيء لطبيعته وبدأت ملامح التوتر على وجه الرجل وهو يلف حوله في قلق ويحرق جميع الأوراق والرموز، بدأ كل شيء يتحول لظلام من حوله والجدران بدأت تتشقق وتخرج منها الثعابين، ثم بدأت كائنات غريبة الشكل كالتي رأيتها في الأرض السابعة تدخل وهي تعوي وكائنات أخرى أجسادها مشتعلة، وكائنات تشبه البشر تحمل سيوفًا تقف جميعًا على ممر بأعلى الكهف، ثم بدت تنزل من على الممر بسرعة والبعض الآخر بدأ في القفز للأسفل، وما زال الرجل يحرق كل الرموز والأوراق وعندما انتهى من حرق كل شيء إلا ورقة واحدة فقط فأخذها وألقى بجسده داخل الدائرة المحاطة بالمسحوق الأحمر والدماء، ثم خرج من الدائرة شعاع أبيض وبدأ في التلاوة من

جديد وبدأ كل شيء يهتز من جديد، أصبحت جميع الكائنات ملتفة حوله، المشهد يتكرر فهذا ما فعله بالبيت، فهي نفس الدائرة وعدم قدرتهم على الوصول إليه، لم يتوقف الرجل عن التلاوة حتى اقتربت سيدة منه وهو بداخل الدائرة قائلة:

- استسلم يا «راهوت» وأتركنا نستخدم تلك البوابات.

فابتسم وأكمل تلاوته حتى انفتحت إحدى البوابات فقفز بداخلها بسرعة وانغلقت خلفه، فغضبت السيدة ثم أصبح كل شيء ظلامًا من جديد فنظر إليَّ «راهوت» قائلًا:

- البوابة التي قفزت بداخلها كانت زمنك يا «خالد»، وعندما تقابلنا حاولت تحذيرك ولكن كنت أعلم أنك لن تخاف وأنك الشخص المناسب.

أخرج «راهوت» ورقه قديمة من جيبه وأعطاها لي وهو يقول:

- حان الوقت لأرحل كجسد وحان الوقت لتعود إلى عالمك، لم ينتهِ الأمر يا «خالد»، لقد هربت من عالمهم ولكنهم لن يستسلموا.

أخذ «راهوت» نفسًا عميقًا ولاحظت أن الوشم اختفى من على كتفه ثم بدأ جسده بالتبخر وانفجر

ليتحول إلى ورود تطير حولي بعد لحظة.

الفصل الأخير

استيقظت في عالمي مشوشًا وسط الكثير من الأحداث في نفس الوقت، أحداث من الطفولة والمراهقة وكأن العقل يبرمج نفسه من جديد ويحاول إدراك ماذا يحدث، وجدت نفسي مستلقيًا في الحديقة بجانب أبي، موقف من الطفولة قديم، أبي ينظر إلى السماء بتمعن ثم قال لي:

- انظر يا «خالد» إلى السماء وإلى النجوم، انظر إليها بتمعن وستشعر بأنك تحلق، قد تشعر بالدوار عندما تعود إلى الأرض ولكن هذا طبيعي.

فنظرت إليه وأخبرته:

- أبي أنا لا أعلم ما الذي تتكلم عنه.

فنظر إليّ مبتسمًا وهو يقول:

- ستفهم يومًا ما يا صغيري، لنستمتع بالسماء الآن قبل أن يحل الظلام.

فأخبرته:

- ولكنه الليل بالفعل يا أبي!

ابتسم لي، ثم انتقلت بالزمن إلى يوم وفاته وهو يحلق لأمتار فوق الأرض وسط شعاع، يمكنني رؤية اليوم بوضوح الآن، أرى الأرواح تحلق من حولي وأرى

أبي ينظر إليها ثم ابتسم لي وهو يقول:

- سأكون حولك دائمًا.

تحول كل شيء إلى ظلام ثم انتهى التشوش لأستيقظ مفزوعًا بأوراق شجر بداخل فمي بداخل حديقة ويجلس بجانبي رجل في أواخر السبعينيات يشير إلى فمي ويضحك بأسنان فارغة وكأنني ألقيت بعض النكات وأنا نائم، استيقظت لأجد نفسي في عالمي من جديد.

جلست بمكاني رأسي تؤلمني وأوراق الشجر تتطاير من حولي وما زال العجوز يبتسم لي، نهضت من مكاني لأتركه بابتسامته متعجبًا، هذا الرجل من جديد؟ أيعاد الزمن الآن أم ذلك الرجل لم يتحرك من مكانه في الأساس؟ السماء مظلمة حولي في منتصف النهار، يجلس بعض الناس متفرقين على الأرض يبكون وعربيات تمشي بمذياع «إنها النهاية فتوبوا إلى الله.. إنها النهاية ولم يتبقَّ الكثير!» تزداد الدموع والأطفال تبكي والناس تجري في الشوارع كالمجانين.

هذا ما يحدث عندما يبدأ العالم بالانهيار.. يفقد الجميع عقولهم كقطيع أغنام هائج يجرون في الشوارع بنصف ملابسهم لا يهتمون بإخفاء أجسادهم فلا يصدقون أن النهاية قريبة إلى هذا الحد، وضعفاء

الإيمان يهربون إلى الجحور ليختبئوا في الكهوف ظنًا أنهم لن ينالوا من النهاية شيئًا، ولكنهم لا يعلمون أن الكهوف هي أول ما ينهار، كل شيء ينهار.. فقد حان الوقت لتطهير الأرض من الفساد لتبدأ حياة أخرى جديدة عليها حتى يحين وقت التطهير القادم. السماء الحمراء، والأودية الجافة، والبحار الهائجة، والجبال المنهارة، والبراكين الحامية تسيل بهدوء كالثعابين لتحرق كل شيء.

أسير في الشوارع بنظرات حائرة لا أعلم ماذا يحدث، حاولت أن أوقف أي أحد لأفهم ماذا يحدث ولكن بدون جدوى، فالجميع في حالة من الذعر، الظلام يزداد والصريخ في الأنحاء يزداد، خرج أشخاص من سياراتهم الفارهة وبدؤوا في إلقاء الأموال على الناس بالشارع محاولين أن يطلبوا الغفران لأنهم لم يساعدوا أحدًا من قبل وهم يصرخون بفخر:

- خذوا أموالنا وأملاكنا، استمتعوا بما نملك قليلًا قبل أن تنتهي حياتكم!

لا يهتمون فأموالهم مجرد أوراق ستحترق خلال ساعات على أي حال، طامعين في بعض الحسنات قبل أن تبتلعهم إحدى الظواهر الطبيعية. أقترب شخص من أحدهم وهو يبكي ويقول:

- ولكن يا سيدي أنا أتيت لك منذ أسبوع طلبًا للمال من أجل طفلي المريض.

فرد عليه أحد الأغنياء سريعًا:

- ومن يهتم يا أحمق؟! خذ الأموال واصمت، نريد الحسنات وليس شفاء طفلك المريض، فالكل سيموت على أي حال.

ثم بدؤوا في ترديد «لقد سامحنا العالم عن الطغيان.. سيسامحنا الرب فلقد أعطيناهم أملاكنا فنحن خير البشرية.»

فالذهب سيحرق جيوبهم على أي حال.. والبعض الآخر اكتفوا باحتضان بعضهم بعضًا بابتسامة الوداع على وجوههم والجلوس في منازلهم، النهاية جعلتهم يدركون كم اشتاق بعضهم إلى بعض.

يجلس الأب وأبناؤه في أحضانه ويقولون في خوف:

- هل سنموت يا أبي؟ هل هذه هي النهاية؟

- ليست النهاية.. سنتقابل في مكان أفضل، أعدكم بذلك.

لم يفقد الناس عقولهم بل عادوا إليها، والبعض ما زال يهرب.. يجرون ويصرخون.. واحد.. اثنان.. ثلاثة.. مئات بدؤوا يقفزون من فوق المباني العالية، قرروا أن

دوحة الكتب دراسية

الانتظار ممل فلماذا لا ينهون حياتهم بأنفسهم؟ والعاشقون يتزوجون بدون قيود أو شروط، وتزوج البائسون طمعًا في أيام أخيرة حلوة خوفًا من أن يموتوا وحيدين، ترى العاشق يطلب الزواج من حبيبته:

- هل يمكنني الزواج من ابنتك؟

فيقول الأب بعدم اهتمام:

- خذ ابنتنا يا بني فلم يتبقَّ الكثير لنعيشه.. خذ أموالنا وأملاكنا أيضًا، فمن يهتم؟!

انتشرت الفوضى وتاب الكثير وأصبحوا كالمجانين يتوسلون للدعوات من الغرباء فبدؤوا يوزعون المال ويبكون على ما فعلوه في حياتهم.. وتنازل بعض رجال الدين عن مبادئهم، لقد عاشوا حياتهم جميعها عظماء يحاربون المعصية ولكنهم قرروا أن يستمتعوا قليلًا بالنهاية.. أصبحت محلات الخمر ممتلئة والجوامع والكنائس والمعابد ممتلئة، وأصبحت الشوارع فارغة الكل يودع الحياة بطريقته، بقلوب صافية وأخرى مذنبة.

أنظر حولي في حيرة وبدأ عقلي يتساءل ماذا يحدث؟ هل هذه النهاية؟ هل لهذا علاقة بالبوابات؟ أأتيت في زمن خاطئ، أم أنني أتيت من زمن آخر لأحضر نهاية العالم؟ قُطعت كل هذه التساؤلات عندما

أمسكت «نادين» بيدي وتبتسم وهي تقول:

- مرحبًا بعودتك يا أخي.

- «نادين»! ماذا يحدث؟

- لقد أخبرتك بأن الظلام سيحل قريبًا.

- الحلم كان حقيقيًا؟

فأجابت وهي تبتسم:

- مرحبًا بعودتك يا أخي، لا تقلق سيهدأ كل شيء قريبًا، سأرحل الآن وسأعود لاحقًا.

ثلاثون ثانية تبقت للنهاية، هذا ما يذيعونه في كل مكان، وأنا أقف بمكاني متعجبًا، يبدأ الجميع بالنظر بعضهم إلى بعض.. غرباء.. أصدقاء.. أعداء.. متى تجعد وجهك يا صديقي؟ يبدو أنني لم أنظر إليك بتمعن منذ فترة.. خمس ثوانٍ متبقية، فاقتربت الأجساد من بعضها ليحتضنوا أرواحهم.

«فلتسقط الكواكب وتلتهمنا البراكين، من يهتم؟!

فلتسقط الجبال ولتبتلعنا البحار، لا نهتم.. لتحرقنا الشمس أو يخنقنا التكدس فالنهاية واحدة مهما اختلفت الطريقة!»

ساعة الصفر والنهاية محتومة، أغلق الجميع عينه، ولكن لم يحدث شيء سوى مرور نسمة باردة على

وجوههم.. لقد أساؤوا الحكم، لم تكن نهاية العالم ولكنها كادت أن تكون نهاية البشر، كادوا أن يكونوا عبيدًا وليس موتى، كادوا أن يصبحوا مجرد ألعاب وأثداء لأطفالهم، فتلك الأعراض بدأت عندما بدأت البوابات تنفتح، وأعتقد أن نفس الأعراض حدثت في جميع الأزمنة فالكل ظن أنها النهاية، ولكنها انتهت عندما أغلقت أنا البوابات.. لن أكذب، شعرت بالقليل من الفخر بداخلي وكأنني بطل في فيلم، ولكن لا يعلم أحد ذلك.

عاد الجميع كما كان عندما عاد كل شيء لطبيعته.. فبدؤوا يصرخون في الشارع فرحًا:

- لم تكن النهاية يا شعب، نحن ما زلنا نتنفس، انظروا، يمكنني الرقص!

- وأنا يمكنني الركض.. ماذا؟! لم تكن هذه النهاية؟!

توقفت البراكين والسماء أصبحت صافية.

تساءل البعض عن زجاجات الخمر:

- أين هي؟ هل أغلقوا الكباريهات؟ أين الراقصات؟

انتشروا من جديد يا أصدقائي وتساءل الأغنياء:

- وماذا عن أملاكي التي أعطيتها للفقراء؟ وأموالي؟ ألن تحترق الأموال؟ والقصور، ألن تُهدم فوقهم؟

وتساءل البعض الآخر:

دوحة الكتب حصرية

- وأنا، ماذا عن ابنتي التي أعطيتها لذلك الأحمق بالمجان؟

- ولكنها تحبه..

- تبًّا للحب، وله!

وتساءل الابن:

- أبي، هل هذا المكان الأفضل؟

- لا يا بني، ما زلنا في الهلاك.

ندم من أذنب بعد حياة صافية من الذنوب:

- هل أذنبنا دون داعٍ؟

- وماذا لو كان عشق الخطيئة بداخلنا على أي حال؟!

- ارتشف يا صديقي، فإنها ليست النهاية ولنا توبة جديدة لاحقًا.

أرى «مريم» واقفة أسفل الشجرة تنظر حولها في حيرة وظل السماء الذي كان يغطينا جميعًا، فنظرت إليّ وهي تعلم أن الأمر ليس له علاقة بانتهاء العالم ولكن الأمر أكثر تعقيدًا، فبدأت تتحرك اتجاهي بخطوات سريعة ثم لاحظت ثلاثة أشخاص خلفها يتقدمون اتجاهي، أوقفها شخص والاثنان الآخران أكملا طريقهما اتجاهي، أنهم هم! لقد اتبعني بعضهم إلى عالمي فقد استخدموا إحدى البوابات، لا أعلم ماذا

أفعل! ما زالا يقتربان مني بصورة سريعة ولكنهما لم يكونا إلا تشتيتًا، فجاء أحدهم من خلفي وغرز سكينًا بظهري فسقطت على الأرض ليداعب ضوء الشمس عيني، ثم اقتربت فتاة غريبة مني كثيرًا وأنفاسها اختلطت بأنفاسي، إنها هي تلك الفتاة من العالم السفلي، لقد اتبعتني من عالمهم.. اقتربت مني أكثر وهمست:

- الحرب لم تنتهِ يا «خالد».. وهذا مجرد تحذير لك.. بوابات «راهوت» سنعود لها لاحقًا.

ثم نهضت ورحلت بعيدًا وتركوا «مريم» وفقدت الوعي وأنا أراها تركض تجاهي.

«في الظلام يمكنك أن ترى الكثير، قد ترى أحلامك تتحقق أو تتدمر، يمكن أن تحلق فوق إيفرست أو تغوص في أعماق البحار، في الظلام أنت تتحكم بخيالك.. ولكن عندما يأتي الظلام للواقع يصبح مخيفًا، تستيقظ صباحًا خائفًا من أنه يكون يوم النهاية، ستشك في كل من حولك ألا يكونوا بشرًا، فتبدأ تسأل كل من حولك، «مرحبًا يا سيدي كيف الحال؟ أأنت بشر مثلنا أم لا؟» «اصمت يا أحمق، أنا بشري أكثر منك ومن أبيك!» «حسنًا يا سيدي طابت ليلتك!»

استيقظت بأنفاس هادئة وأضواء بيضاء كادت أن

تصيبني بالعمى والجدران البيضاء والممرضات ملتفات حولي يبتسمن لي وكأنهن اعتدن على عودتي إلى الحياة بأعجوبة، فلم يصابوا بالذهول كالمرة الماضية، التقطت أنفاسي وأنا أنظر إليهن مبتسمًا وفي عقلي تدور لحظات فخر خيالية، العالم لم ينتهِ ولم تموتوا، لقد أنقذتكم أيها البائسون، وأصبحت خارق القوي أتكلم لغة السحر وسأحولكم قرودًا جميعًا! انقطعت الفقرة الكوميدية بداخل رأسي عندما رأيت «مريم» جالسة بجانبي، و«نادين» واقفة أمام المرآة تبتسم وهي تضبط هيئتها، لقد تركوا سراح المرضى النفسيين ليواجهوا نهايتهم بحرية.. وعلى الباب الخارجي أرى تلك الفتاة صاحبة الوشاح واقفة، ماذا تفعل هنا؟ أنجحت في الهروب من عالمهم؟ نظرت إليها بتعجب والدموع تداعب خديها، تبدو أكثر راحة وأكثر نضرة، اتسعت ابتسامتها عندما رأتني مستيقظًا فلوحت لي تشكرني وذهبت بعيدًا.. لعل تلك الكهوف قد أهلكت ملامحها وجعلتها مثل السردين المتعفن، ولكنها الآن مثل ... لا أعلم مثل ماذا ولكن أصبحت شيئًا جميلًا.

أخذت نفسًا عميقًا فهو يُعد أول نفس آخذه منذ زمن بدون الشعور بخوف.. حسنًا بالتأكيد أنا خائف بعد إدراكي أنهم أصبحوا في عالمنا وموجودين في الزمن

الذي أعيش به، ولكن أشعر بالراحة، أمسكت مريم بيدي ثم نهضت وهي تقول:

- لقد وجدت الممرضات معك شيئًا.

نهضت من مكانها وجلبت شيئًا من معطفها وأعطته لي لأجدها ورقة «راهوت»! ولكن كيف.. فنظرت «نادين» إليّ وهي تبتسم ولكن عقلي لم يعد قادرًا على التفكير، فوضعت الورقة داخل جيبي ولاحظت في المرآة على جانبي الأيمن انعكاسًا لوشم يعتلي أعلى كتفي.. وشم مكون من دوائر متداخلة.. أغمضت عيني لأغوص في عالم مضيء وخالٍ من الظلام مؤقتًا، فروحي مرهقة وقد مرت بالكثير وقد حان الوقت لأرتاح قليلًا، لأنام لساعات أو لأيام، وقد تطول لأسابيع، فلا توقظوني أرجوكم واتركوا تلك المهمة لعقلي فهو يعلم متى سيستيقظ..